
عقائد الإسلام
(٣)
الإيمان بالقدر
مكتبة وهبة

الإمام يوسف القرضاوي

عقائد الإسلام
(٣)



مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: الإيمان بالقدر
عقائد الإسلام (٣)
الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
اسم المؤلف: الإمام يوسف القرضاوي
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٩٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٥١٨٤
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-225-152-3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

لك الحمد ربنا حمدا كثيرا ، كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، اللهم ما أصبح وأمسى بنا من نعمة فلك الحمد ، ولك الشكر . اللهم إنا أصبحنا وأمسينا في نعمة وعافية وستر ، فأتمم لنا نعمتك علينا وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة .

وأزكى صلواتك وتسليماتك على عبدك ورسولك محمد ، الذي أرسلته رحمة للعالمين ، وحجة على الناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد

فهذه صحائف سطرتها في (عقيدة القدر) كما جاء في محكمات الكتاب والسنة ، وهي أحد الأركان الستة في العقيدة الإسلامية ، أو هي الركن الأخير منها ، وإنما عجلت بنشرها ، لأنها اكتملت عندي ، فلم أشأ أن أؤخرها . وقد نشرت قبل ذلك في موضوعات العقيدة المباشرة ، رسالتين : إحداهما : حول (**وجود الله**) تعالى شأنه ، والأخرى : حول (**حقيقة التوحيد**) وأدعو الله تعالى أن يوفقنى لاستكمال سائر أركان العقيدة؛ من صفات الله تعالى وكمالاته وأسمائه الحسنى ، ومن الإيمان بكتب الله تعالى ورسله ، وخصوصا خاتمهم محمد ﷺ ومن الإيمان بالآخرة ، وما فيها من حساب ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار .

وقضية القدر ، من القضايا الكبيرة التي اختلفت فيها الأنظار ، والتوجهات ، بين الأديان والفلسفات ، وتفاوتت فيها أنظار المسلمين أنفسهم تفاوتا بعيدا ، من إفراط الجبرية ، إلى تفريط القدرية ، إلى تجاوزات الفرق المختلفة من المثبتين والنفاة .

ومما يؤسف له أن الفِرق المختلفة في هذه القضية ، تمسك كل فيها ببعض النصوص المؤيدة لوجهة نظرة في مقابلة خصمه ، وضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، كما قصر كثير منهم نظره على زاوية من الزوايا وأغفل الأخرى .

ونحن هنا لم ننتسب إلى فرقة من الفرق ، إلا إلى الكتاب والسنة ، وقد اجتهدنا في حسن الفهم لهما ، رادّين المتشابهات إلى المحكمات ، جامعين بين النصوص بعضها وبعض ، بحيث يصدق بعضها بعضا ، ويفسر بعضها بعضا ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) .

وبهذا أخذنا الحق حيث وجدناه عند أي فئة كانت ورددنا الباطل أنا وجدناه عند أي فرقة ، وجمعنا الحق بعضه إلى بعض ، وكان همنا الفكرة الصحيحة دون العنوان ، فالعبرة ليست بالعناوين ، بل بالمضامين .

وأرجو أن يكون في هذه الدراسة ما يضيء الطريق لأبناء الإسلام ، ليحسنوا فهم دينهم ، وينطلقوا منه عاملين محسنين ، موقنين بأن عقيدة القدر تدفعهم إلى العمل في كل الظروف ، غير هيابين ولا وجلين ، مراعين لسنن الله ، آخذين بالأسباب المشروعة ، معتقدين أن الله تعالى قدر الأسباب كما قدر المسببات ، وأن لا وصول إلى المسببات والنتائج التي قدرها الله إلا بأسبابها . ينطبق ذلك على عمل الآخرة ، كما ينطبق على عمل الدنيا ، فسنن الله في الدارين واحدة .

أسأل الله تعالى في أن ينفع بهذه الدراسة كل من قرأها ، وأن يأجر كل من نشرها أو أسهم في نشرها . وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

يوسف القرضاوي

الدوحة ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ

حزيران (يونيو) سنة ٢٠٠٠ م

الإيمان بالقدر

من أركان الإيمان ، وركائز العقيدة في الإسلام : الإيمان بالقدر . كما ثبت في حديث جبريل المشهور في تفسير (الإيمان) ، وكان من ذلك : وأن نؤمن بالقدر خيره وشره .

● معنى القدر

معنى القدر : أن هذا الكون وما فيه لا يسير جزافا . ولا يقع شيء فيه اعتباطا ، أو يحدث أنفا ، بغير علم وتدبير . وإنما علم الله ـ سبحانه ـ في الأزل الأشياء قبل وقوعها ، وقدرها على ما تكون عليه ، قدر زمانها ومكانها ومقدارها وشكلها ، وخصائصها وصفاتها ، وأحوالها . وسجل ذلك كله في كتاب مسطور ، وإمام مبين ، لم يفرط فيه من شيء ، فهي تقع بإرادته وقدرته ، حسب ما قدرها سبحانه وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩) ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢).

● مراتب القدر

فمعنى تقدير الله لشيء ما يتضمن إثبات حقائق أو مراتب أربع :

الأولى : أن الله علمه قبل وقوعه ، فإن علم الله المحيط لا يغيب عنه شيء ، دق أو جل ، صغر أو كبر . وهو يعلم الشيء قبل أن يقع ، كيف سيقع ؟ ومتي سيقع ؟ وأين سيقع ؟ ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس:٦١) ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(الأنعام:٥٩)

وما علم الله أنه سيقع فلابد أنه واقع ، وما علم أنه لا يقع فلن يقع أبدا ، وما علم أنه يقع على صفة خاصة ، وحالة معينة ، فسيقع لا محالة على هذه الصفة وتلك الحال. ولا يملك مخلوق ما ، ولا المخلوقات جميعا أن تغير مما علمه الله شيئا ، وإلا استحال العلم الإلهي جهلا .

الثانية : أن كل ما يقع في الكون إنما هو بمشيئة الله النافذة ، وإرادته الكونية العامة ، لا يخرج عن ذلك عمل عامل ، ولا قول قائل ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (الأنعام:١١٢)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة:٢٥٣).

ولهذا اتفق المسلمون على أن « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » .

الثالثة : أن كل ما في الكون هو بخلق الله تعالى ، وأثر قدرته ، وليس له شريك في الخلق ، ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾ (الرعد:١٦) .

الرابعة : أن الله ـ تعالى ـ قد سجل ذلك منذ القدم في كتاب عنده هو : « اللوح المحفوظ» وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨) على أحد التفسيرين [١] .

وقال سبحانه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد:٢٢).

وقال تعالى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (الأحزاب:٦).

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة:٥١)، ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٥٤) فدل ذلك على أن الناس قد كتب لهم أو عليهم ما يحدث لهم أو يحدثونه ، وقال الرسول ﷺ في حديث ابن عباس : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » [٢].

---

(١) التفسير الثاني : أن الكتاب في الآية هو القرآن الكريم .

(٢) رواه الترمذي (٦١٥٢) عن ابن عباس وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد أيضا (١/٣٩٢) وأبو يعلى (٦٥٥٢).

● الإيمان بالقدر في السنة

جاء في السنة الصحيحة المستفيضة : أن الإيمان بالقدر ركن من أركان العقيدة الإسلامية الستة ، كما حدد ذلك حديث جبريل المشهور الذي رواه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب أن جبريل سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة . فحين سأله عن الإيمان ، قال :« الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[(١)].

فلا يتحقق إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر .

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث علي رضي الله عنه مرفوعا :« لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر »[(٢)] .

وحين بلغ ابن عمر أن أناسا يزعمون : أن لا قدر وأن الأمر أنف[(٣)] قال لمن أخبره : « إذا لقيت هؤلاء ، فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني . والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ، فأنفقه (أي في سبيل الله) ما قبل الله ذلك منه ، حتى يؤمن بالقدر » رواه مسلم[(٤)].

وقال عبادة بن الصامت لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب : فقال : رب ماذا أكتب؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » رواه أبو داود[(٥)] . .

---

(١) رواه مسلم في أول كتاب الإيمان وهو أول حديث في صحيحه بعد المقدمة عن ابن عمر عن أبيه عمر رضي الله عنهما ، رقم (٨).

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم (٨٥٧) وقال الشيخ شاكر صحيح ورواه الترمذي .

(٣) أي مستأنف لم يسبق به علم الله .

(٤) برقم (٨) وهو جزء من حديث جبريل المشهور .

(٥) برقم (٤٧٠٠) عن عبادة بن الصامت .

أما هذا القلم ما هو؟ وكيف هو؟ وكيف يكتب؟ فهو من عالم الغيب الذي نؤمن به ، ولا نعرف كنهه ، ولا نطلب حقيقته ، كالعرش واللوح والكرسى ونحوهما . كل الذي يعنينا هنا أن ما يكتبه هذا القلم الإلهي في الكتاب المكنون هو « القدر » .

وقد ورد في القدر والإيمان به أحاديث كثيرة ، تقصاها أحد جهابذة العلماء[1] فبلغت ٢٢٧ حديثا ، منها ٧٢ حديثا في وجوب الإيمان بالأقدار ، و١٥٥ في ثبوتها .

قال أحد السلف :« من كذب بالقدر كذب بالإسلام ؛ إن الله تعالى قدر أقدارا وخلق الخلق بقدر ، وقسم الآجال بقدر ، وقسم الأرزاق بقدر ، وقسم البلاء بقدر ، وقسم العافية بقدر ، وأمر ونهى» .

● الإيمان بالقدر في القرآن

أما القرآن فلم يذكر الإيمان بالقدر باعتباره ركنا مستقلا من أركان العقيدة ، بل اكتفي بالأركان الخمسة : الإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، كما جاء في آية « ليس البر » وفي غيرها من الآيات . قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (البقرة:١٧٧) وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة:٢٨٥) .

فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقال أيضا : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١٣٦) .

فهكذا رأينا القرآن الكريم لم يذكر (القدر) صراحة ضمن متعلقات الإيمان مثل الخمسة المذكورة .

---

(١) هو العالم اليمني الإمام الحجة المجتهد أبو عبد الله محمد بن المرتضى ، المعروف بابن الوزير، صاحب كتاب (إيثار الحق على الخلق) و (العواصم والقواصم) و (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) وغيرها من الكتب القيمة، توفي سنة ٨٤٠ هـ .

والسر في ذلك أن الإيمان بالقدر داخل ضمنا في الإيمان بالله ، بل هو جزء حقيقى منه . لأن معناه : الإيمان بإحاطة علم الله تعالى بكل شيء ، وشمول إرادته لكل ما يقع في الكون ، ونفوذ قدرته في كل شيء ، وقد صرحت آيات القرآن بأن الله قدر كل شيء في مواضع شتى من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد:٢٢)

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ (القمر:٥٢) ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس:٦١) .

• الإيمان بالقدر إيمان بمقتضى الكمال الإلهي

إن الإيمان بالقدر الذي جاء به الإسلام ، ليس إيمانا بالحظ (البحت) أو الصدفة . كلا ، الإيمان بالقدر على النحو الذي ذكرناه ، إنما هو إيمان بمقتضى الكمال الإلهي الذي تميزت به عقيدة الإسلام ، وصححت به أوهام الفلسفات وانحراف الديانات في شأن الألوهية . فليس الإله في الإسلام إلها معزولا عما يجرى في الكون ، لا يعلمه ولا يتدخل فيه بتدبير ولا تصريف ، كـ (إله أرسطو) الذي لا يعرف إلا ذاته ، ولا يعلم عن هذا الكون شيئا ، ولا يدبر فيه أمرا ، أو (إله أفلوطين) الذي لا يعلم ذاته نفسها !

وليس كـ (إله المجوس) الذي له نصف الكون يدبره ويتصرف فيه ، وهو ما يتعلق بالخير والنور ، أما النصف الآخر وهو ما يتصل بالشر والظلمة ، فذلك من شأن إله آخر ، فهما إلهان إذن : أحدهما إله الخير والنور ، والآخر إله الشر والظلمة . والحرب بينهما سجال ، حتى ينتصر إله الخير في النهاية .

وليس هو كـ (آلهة اليونان) التي تخبط في تصرفاتها خبط عشواء ، والتي تعيش في حرب مع البشر ، حتى إن رواياتهم عن القدر وضرباته للناس تمثله هازئا بهم ، متحديا لهم ، يطاردهم ويتجنى عليهم ، ولهذا كثر الحديث في أدبهم عن قسوة القدر ، وعن القدر الأعمى ، والقدر الغاشم ، ونحو ذلك .

وليس كـ (إله بني إسرائيل) الذي تصوره توراتهم المحرفة ، وكتبهم وأساطيرهم ، غيورا منتقما مدمرا ، متعصبا لشعب إسرائيل دون العالمين ، خائفا من الإنسان أن يأكل من شجرة الحياة ، فيصبح كواحد من الآلهة ! نادما على ما يفعله في بعض الأحيان ، عاجزا عن مقاومة الإنسان ، حتى إن إسرائيل ليصارعه فيصرعه !!

ليس هذا الذي تتصوره أو تصوره الديانات والفلسفات هو إله الإسلام ، إنما الإله في الإسلام هو مالك الملك ، وصاحب الخلق والأمر ، رب العالمين ، هو خالق كل شيء ، ومدبر كل أمر ، بيده ملكوت كل شيء ، وإليه يرجع الأمر كله . لا يخرج شيء عن قبضة قهره ، ولا حي أو جماد عن دائرة سلطانه ، يحكم ما يريد ، ويفعل ما يشاء ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وهو مع هذا بر كريم ، عدل رحيم ، عليم حكيم ، لا يظلم أحدا ، ولا يأخذ مخلوقا بذنب غيره ، ولا يبخسه أجر سعيه ، فلا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما ، والظلم : أن يعاقبه بما لم يعمل ، والهضم : أن يضيع أجر ما قد عمل . والله سبحانه لا يعاقب بغير سيئة ، ولا يضيع أجر حسنة ، بل يضاعفها كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (النساء: ٤٠)

هذا هو الإله الذي يجري كل شيء في الكون بتقديره وتدبيره بعلمه ومشيئته ومقتضى حكمته . وعلى هذا الأساس كان إيمان السلف بالقدر من الصحابة ، ومن تبعهم بإحسان . فليس الإيمان بالقدر إيمانا بالبخت والمصادفات ، والعشوائية في الكون ، كهؤلاء الذين ينقلون إلى العربية التغييرات اليونانية والغربية عن القدر فتراهم يقولون : « القدر الأعمى ، والقدر الأحمق ، والقدر الغاشم ، وعبث الأقدار » ونحوها . وهي ألفاظ وتعبيرات يبرأ منها الإسلام والمسلمون .

إنما هو إيمان بإحاطة علم الله ، وعموم مشيئته ، وشمول قدرته ، وربوبيته لكل ما في الكون ، وإن كل ما يحدث في الوجود ، إنما يتم بناء على ترتيب أو تصميم سابق ، وتدبير قديم ، وتقدير عزيز عليم .

• مجالات القدر

نستطيع أن نقسم المجالات التي يجري فيها القدر الإلهي إلى ثلاثة :

• ما يجري في الكون الكبير من حولنا

• **المجال الأول** : ويتعلق بالنظام الكوني العام من دوران الأفلاك ، وحركات الكواكب ، وتصريف الرياح ، وإجراء السحاب ، وإنزال الأمطار ، واختلاف الليل والنهار ، وما يجري على جميع النباتات والجمادات على تنوعها وتباينها ، من الذرة إلى المجموعة الشمسية ، إلى المجرات العظيمة في الفضاء الهائل .

فهذه الأشياء علويها وسفليها ، ما نبصر منها وما لا نبصر ، كلها تجري بتقدير الله ، لا يعزب عن علمه منها شيء ، ولا يخرج عن قبضة مشيئته وقدرته منها شيء ، فهي تسير وفقا لما قدره من سنن وقوانين ، نظم بها عقد هذا الكون وفق مشيئته وحكمته تعالى .

ومراتب القدر الأربع جارية عليها : العلم والكتابة والمشيئة والقدرة : ولا دخل لمخلوق صغر أو كبر في هذا النظام العام وتسييره ، ولا قدرة له على تغييره ، ولقد انكسفت الشمس مصادفة يوم موت إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، فظن بعض الناس أنها انكسفت لموته ، فبادر عليه الصلاة والسلام بنفي هذا الوهم ، وقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

ويقول تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (يس:٣٧-٤٠).

فهذه المخلوقات والأجرام العظيمة خاضعة لمشيئة الرحمن ، مسخرات بأمره جارية بتقديره ، ولعل هذا الخضوع لأمر الله ومشيئته المهيمنة هو المعبر عنه في القرآن بالتسبيح : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ (الإسراء:٤٤).

• ما لا دخل لنا فيه من خلقنا وحياتنا

• **المجال الثاني**: يتعلق بنا نحن المكلفين مما ليس لنا فيه أدنى إرادة ولا اختيار، مثال ذلك: خلقنا نفسه، لماذا خلقنا؟ ولماذا خلقنا بشرا؟ ولماذا خلق هذا ذكرا وهذه أنثى؟ ولماذا ولد هذا من أب عربي، وهذا من عجمي؟ ولماذا ولد في هذا المكان؛ ولم يولد في غيره، وفي زمان معين دون غيره؟ ولمَ كان هذا أبيض، وذاك أسود؟ ولماذا كان هذا غبيا، وذاك عبقريا؟ وهذا طويلا عملاقا، وذاك قصيرا قزما؟ لماذا يعيش هذا مائة عام، ويموت هذا في ميعة الصبا؟.

هذه الأسئلة وما شابهها ليس لها جواب إلا محض المشيئة الإلهية والقدر الإلهي. فالله تعالى هو الذي يقدر ويخصص ويختار ويشاء: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾(القصص:٦٨) ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى:٤٩،٥٠) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:٦) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (آل عمران:١٤٥) ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ﴾ (فاطر:١١).

ففي هذه الأمور المذكورة نحن مسيرون مجبورون، تجري علينا المقادير بمراتبها الأربع السابقة، ولسنا مسئولين عن شيء مما ذكر، ولا نحاسب عليه دنيا أو آخره. لا نسأل عن ذكائنا أو غبائنا، ولا عن بياضنا أو سوادنا، ولا عن طولنا أو قصرنا، ولا عن أعمارنا أو آجالنا، ولا عن آبائنا وأمهاتنا، ولا عن شعوبنا وقبائلنا.

إنما علينا أن نرضى بما قدر الله لنا في ذلك، ونوقن أن فيما قدره حكمة قد تتجلى لنا، وقد تخفى علينا، وقد نعرف منها شيئا، وتغيب عنا أشياء.

وهذا ما أحسن سلفنا الإيمان به، وسلموا لله فيه، فصنعوا الأعاجيب، وحققوا المعجزات أو ما يشبه المعجزات.

• أعمالنا الإرادية الاختيارية

• **المجال الثالث** : أعمالنا الاختيارية ، ونعني بالاختيارية : تلك التي يشعر الإنسان من نفسه أن له فيها إرادة وقصدا ، وأن له عليها سلطة وقدرة ، مثل الأكل والشرب ، واللبس من المباحات ، ومثل الصلاة والصيام والإنفاق والحج والجهاد والذكر من الطاعات ، ومثل الزنى والسرقة والقتل وشرب الخمر وأكل الربا من المحظورات .

فهل هذه الأعمال يجري عليها القدر بمراتبه الأربع ، كما جرى في المجالين السابقين؟ وبعبارة أخرى : هل هذه الأعمال التي نشعر بأننا مختارون لها ، قادرون عليها ، واقعة حسب علم الله تعالى وكتابته القديمة ، وبمشيئته تعالى وقدرته النافذة؟

أما علم الله بالأفعال قبل وقوعها ، وكتابته إياها في اللوح المحفوظ فهو مما اتفق عليه طوائف المسلمين من المعتزلة وأهل السنة وغيرهم ، ولم يخالف فيه إلا (قدماء القدرية) الذي أدركهم بعض الصحابة : كابن عمر وابن عباس وكجابر وغيرهم ، وحكموا بكفرهم ، ومروقهم من الإسلام ، لأنهم يكذبون صريح القرآن ، وما عُلِم من الدين بالضرورة ، وكان بعد عهد معاوية ، أيام الصراع بين ابن الزبير وبني أمية . وأول من قال بذلك « مَعْبَدُ الجهني» وهؤلاء قد انقرضوا ولم يطل بقاؤهم ، ولكن الذي وقع الاختلاف فيه ، هو إرادة الله لأعمال المكلفين وخلقه إياها ، هل تقع أعمال العباد بإرادتهم وقدرتهم هم ، أو بإرادة الله تعالى وقدرته؟ أو تقع شركة بين الله والعباد؟ وما الذي للرب والذي للعبد في هذه الأعمال؟.

وبعبارة أخرى : هل الله يريد أعمال العباد كلها طاعات ومعاصي ؟ وهل هو خالقها وفاعلها ، أم العبد هو المريد الفاعل الخالق لكل أعماله؟

هذا الموضع الشائك قد زلت فيه أقدام ، وضلت أفهام ، وافترقت فيه طرق أهل الكلام ، ما بين مفرطين ومعتدلين

• الإنسان بين الجبر والاختيار

اختلف الفلاسفة وأهل الملل والنحل من قديم ، في هذه القضية الخطيرة ، وفي الإجابة عن هذا السؤال الكبير : هل الإنسان مختار في أفعاله أو مجبور ، مخير أم مسير؟

سؤال حير الإنسان ، وأقلق الباحثين ، في مجال الفلسفة أو في مجال الدين ، وشغل الخواص والعوام ، ولا يزال يشغل الجميع إلى اليوم .

ومن المجيبين عن هذا السؤال من مال إلى جانب الحرية والتخيير ، ومنهم من جنح إلى جهة الإجبار والتسيير .

ومنهم من أجاب إجابة لا تنقع غلة ولا تشفي علة ، لأن الموضوع متشعب ومركب معقد .

فقال بعض الفلاسفة : هو حر في ميدان من القيود .

وقال بعضهم : هو مجبور على أن يختار .

وقال غيرهم : هو مواطن في عالمين .

ولا غرو أن وجدنا صدى هذا الخلاف القديم ، عند الطوائف المختلفة من أهل الإسلام ، الذين خاضوا في لجج هذه القضية ، وما يعتورها من مشكلات .

وقد رأينا فيها من غلا في جانب وشطح ، ومن غلا في جانب المقابل وجمع ، ومن نهج النهج الأوسط ، الذي قال فيه الإمام على رضي الله عنه : عليكم بالنمط الأوسط ، الذي يلحق به التالي ، ويرجع إليه الغالي .

● المعتزلة فرطوا في إثبات القدر :

فالمفرطون أخرجوا معاصي العباد وقبائح أعمالهم من دائرة ما أراد الله تعالى وخلقه ، وقالوا : إن الله جل شأنه لم يشأ ضلالة الضالين ، ولا معصية العاصين ، ولم يخلقها ، بل لم يخلق شيئا من أفعال العباد الاختيارية ، وجعلوا الإنسان هو الذي ينفرد بخلق أفعال نفسه ، ويستبد بإرادتها ، ولا شأن لله بها إرادة ولا خلقا .

وإذن تكون الطاعات والمعاصي ، والحسنات والسيئات كلها من خلق العباد أنفسهم ، وقعت بمحض إرادتهم وقدرتهم لا غير ، وهؤلاء هم المعتزلة ، الذين يطلق عليهم اسم « القدرية » ويبدوا أنهم أول من تكلم في أمر القدر ، وجادلوا فيه ، فنسبوا إليه ، مع أنهم نفاة لا مثبتون .

● الجبرية والقدر

وفي مقابل المعتزلة الذين فرطوا في أمر القدر ، ظهرت طائفة أفرطت كل الإفراط ، أنكروا أن يكون الإنسان فاعلا لأفعاله الإرادية ، وأن تكون له قدرة لها تأثير في مقدورها ، وأن تكون له مشيئة في أفعاله ، وإنما الفاعل لأفعال العباد ، المريد لها هو الله ، الذي لا يبرز شيء في الكون من العدم إلى الوجود إلا بمشيئته الفذة ، وقدرته المنفردة .

أما الإنسان فليس إلا محلا لأفعاله ، تجري عليه كما تجري على الآلات وهؤلاء هم « الجبرية » الذين يرون الإنسان مجبورا مسيرا ، لا إرادة له ولا قدرة ولا اختيار ، حتى غلا بعضهم فقال : « إن حركاته بمنزلة حركات الأشجار إذا هبت عليها الريح ».

وأول من ظهر منه هذه المقالة هو « جهم بن صفوان » الترمذي ، وكان ذلك في أواخر دولة بني أمية ، بعد ظهور القدرية الأول ثم انقراضهم ، وظهور المعتزلة بعدهم ، وقد أنكر السلف على« جهم » وأتباعه أشد الإنكار ، كما أنكروا على الطائفة الأخرى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « قابل القدرية قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف ، فأثبتوا القدر ، وآمنوا بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهذا حسن .

« ولكنهم قصروا في الأمر والنهي ، والوعد والوعيد [١] أفرطوا حتى غلا بهم الأمر إلى الإلحاد ، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:١٤٨).

« فأولئك القدرية وإن كانوا يشبهون المجوس ـ من حيث إنهم أثبتوا فاعلا لما اعتقدوه شرا غير الله سبحانه ، فهؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) .

---

(١) لأن مقتضى الفكرة الجبرية: أن الأمر والنهي عبث ، وأن الوعد والوعيد لا معنى له ، ما دام الإنسان مجبورا .

« فالمشركون شرّ من المجوس ؛ لأن المجوس يقرون بالجزية ، باتفاق المسلمين ، حتى ذهب بعض المسلمين إلى حل نسائهم وطعامهم .

والمقصود : أن من أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي ، فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر » .

• موقف الأشاعرة

ومن علماء الكلام المنتسبين إلى أهل السنة من تبرأ من (اسم) الجبرية ، ولكنه وقع في (مسمّاه) من حيث لا يدري ، أو أوشك أن يقع .

ومن هؤلاء الأشعرية ـ ويقال لهم أيضا ـ الأشاعرة ، وهم أتباع الإمام الكبير الشيخ أبي الحسن الأشعري الذي كان من المعتزلة ، ثم خالفهم وتركهم ، وأعلن انتسابه إلى السنة ، وإلى الإمام أحمد بن حنبل ، وصار رأس مذهب مشهور معلوم .

والمشهور عن الإمام الأشعري : أنه لم يجعل للإنسان قدرة مؤثرة في مقدورها ، بل أثبت له شيئا سماه « الكسب » ، فالله خالق الفعل ، والعبد هو كاسبه .

ولكن ما حقيقة الكسب؟ وما تأثيره في حدوث الفعل؟

هنا يضطرب قول الأشعري ومن وافقه اضطرابا عظيما ، وتختلف عباراتهم اختلافا كثيرا . وخلاصة ما قالوه : أن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ، ولا في صفة من صفاته ، وأن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ، فيكون الفعل خلقا من الله إبداعا وإحداثا ، وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته .

وقالوا : إن العبد ليس محدثا لأفعاله ، ولا موجدا لها . ومع هذا يقولون : إنا لا نقول بالجبر المحض ، بل نثبت للعبد قدرة حادثة مقارنة للفعل ، والجبر المحض لا يثبت للعبد قدرة .

والكسب بهذا المعنى لا يحل المشكلة ، ولا يفسر لنا علة التكليف ومناطه الذي به يثاب المرء ويعاقب ، ويلزم منه ألا يكون هناك بين القادر والعاجز فرق ، فإن مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة ، فإن فعل الإنسان يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته ، فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران ، فلا فرق بين هذه القدرة وغيرها .

وبهذا نرى أن الكسب ـ الذي أثبته الأشعري ، وجعله مناطا للتكليف ، وأساسا لترتب الجزاء من الثواب والعقاب ـ ليس في الحقيقة (أمر وجوديا) إيجابيا مؤثرا ، إنما هو مجرد مقارنة قدرة الإنسان لفعله المقدور له ، من غير تأثير لها في إيجاد المقدور .

ولهذا عدّه المحققون من (مُحَالات الكلام) وضربوا به المثل في الخفاء والغموض فقالوا : «أخفى من كسب الأشعري» !

ومذهب الأشعري في هذه المسألة قريب من مذهب الجهمية الجبرية ، الذين سلبوا الإنسان قدرته واختياره ، حتى غلا بعضهم فجعل حركته الاختيارية بمنزلة حركات الأشجار عند هبوب الرياح .

وبعض الأشاعرة يغلون في إثبات القدر حتى لا تستطيع أن تفرق بينهم وبين الجبرية . ومن هؤلاء الإمام فخر الدين الرازي ، الذي قال فيه ابن تيمية : كان جبريا محضا .

هذا هو المشهور عن الأشعري والأشاعرة ، ولكن روي عنه ، وعن جماعة من أصحابه الكبار قول آخر ، أدنى إلى الحق الذي جاء به صريح القرآن وصحيح السنة ، كما سيتضح فيما يلي :

● مذهب المحققين من علماء السنة

والمذهب الوسط بين الذين فرطوا في إثبات القدر ـ وهم المعتزلة ـ والذين أفرطوا فيه ـ وهم الجهمية ومن قاربهم من الأشعرية ـ هو مذهب أَهل العلم والاعتدال من أهل السنة والحديث ، الذين لم يرجعوا في هذه القضية إلى مصدر غير الإسلام ، ولم يحتكموا إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وخلاصة هذا المذهب تصورّه الحقائق التالية :

١- أننا نعلم بضرورة العقل والحس ، أن لنا أفعالا اختيارية تستند إلى إرادتنا وقدرتنا ، وأننا إذا أردنا الحركة يمنة لم تقع يسرة ، وإذا أردنا أن نأكل الخبز لم نأكل التراب ، وإذا أردنا الصلاة في المسجد لم نذهب إلى الحانة ، وأننا نفرق بالضرورة بين حركة الصاعد على السلم والساقط منه ، ونعلم أن الأول مختار في حركته ، والثاني غير مختار .

٢- ونعلم بضرورة الشرع ـ الذي جاء به كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ـ أن الله هو الذي خلق فينا الإرادة والقدرة اللتين بهما نحدث أفعالنا ، وهذه الإرادة والقدرة المخلوقة فينا هي أساس تكليفنا ، ومناط مسؤوليتنا عن أعمالنا في الدنيا والآخرة . وعلى هذا ترتب المدح والذم ، وكان الثواب والعقاب ، وقامت سوق الجنة والنار ، ودلت على ذلك النصوص الشرعية .

٣- وهذا لا ينافي الاعتقاد بأن الله خالق كل شيء ، وأن كل ما في الكون حادث بمشيئته وقدرته ، ذلك أن الله تعالى هو خالق الإنسان بكل ما فيه من قوى وطاقات ، وصفات مادية ومعنوية ، ومن جملة هذه القوى : الإرادة والقدرة اللتان يوجد الإنسان بهما جميع أفعاله الإرادية ، والله تعالى هو الذي جعلهما سببا لإحداث الفعل حسب سننه تعالى في الخلق ، ولا ريب أن خالق السبب التام خالق لمسببه ، ولو لم يشأ سبحانه وجود فعله لما خلق السبب الموجد له .

٤- وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول : إن الله هو خالق أفعال العباد ، لأن سنته تعالى أن يخلق الأشياء بوسائط وأسباب ، ومن هذه الوسائط ما خلقه تعالى في الإنسان من قدرة وإرادة واختيار ، كما أن الإنسان هو محدث أفعاله بإرادته واختياره وقدرته حقيقته .

هذا القول المعتدل الموافق للنصوص ، وبه نخلص من ورطات المعتزلة والجبرية كلتيهما ، ونثبت للإنسان إرادة مرجحة ، وقدرة مؤثرة في مقدورها بإقدار الله وتمكينه سبحانه .

وأبرز من وضح هذا المذهب ونصره ، وأزال عنه غبار الشبهات والاعتراضات هو : إمام الحرمين الجويني من كبار أصحاب الأشعري وشيخ حجة الإسلام الغزالي ، وبعده شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، وبعدهما الإمام ابن الوزير اليمني .

بل قالوا : إن الأشعري نفسه ذكر في كتابه «الإبانة» ما يدل على أنه إنما نفى عن قدرة العبد الاستقلال لا أصل التأثير بإذن الله وتمكينه ، وحينئذ يكون إمام الحرمين موافقا له .

وكتاب «الإبانة» هو آخر مصنفات الإمام الأشعري، وهو المعول عليه في المعتقد من بين كتبه، كما دل عليه كلام الحافظ ابن عساكر في كتابه عن الأشعري.

● نصوص القرآن تؤيد هذا المذهب

فالذي يستقرئ النصوص الواردة في هذه القضية يجد:

أولا: أن القرآن والسنة قد أسندا الأفعال إلى العباد في عشرات ومئات من الآيات والأحاديث، تارة بالاسم العام مثل: (يعملون - يكسبون - يصنعون) ونحوها، وتارة بأسمائها الخاصة مثل: (يتقون - يعبدون - يؤمنون - يكفرون - يشركون - ينفقون - يجاهدون - يقتلون - يصلحون - يفسدون) وما إلى ذلك.

والأصل في إسناد الفعل إلى فاعله أن يكون على سبيل الحقيقة لا على المجاز. وبخاصة أن بعض هذه الأفعال يستحيل أن يسند إلى الله تعالى مثل: الزنى والسرقة والإفساد ونحوها، ومثل التقوى والعبادة والصلاة ونحوها.

ثانيا: أن القرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة على أعمال العباد، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع كما قال ابن القيم، وذلك مثل ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

فلولا أن الإنسان هو فاعل الفعل، والمسؤل عنه، ما حاسبه الله عليه ولا آخذه به، وعاقبه عليه، ومن ظن أن الله تعالى يعذب عبده بما لا إرادة له فيه، ولا قدرة له عليه، ولا تأثير له في فعله، بل يعذبه على فعله هو سبحانه، فقد ظن بالله تبارك وتعالى ظن السوء، وجعل له مثل السوء، كما قال ابن القيم رحمه الله.

ثالثا: أن الآيات القرآنية قد أثبتت للإنسان مشيئة وإرادة بها يختار ويرجح كما أثبتت له قوة واستطاعة بها يفعل ويؤثر، ولكن هذه القوة وتلك المشيئة مستمدتان من قدرة الله تعالى ومشيئته، وليستا مستقلتين عن الله أبدا.

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:٢٩) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٦٢) ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (المدثر:٣٧) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ (المزمل:١٩) وفي سورة أخرى ذكرت هذه الآية نفسها ، ثم أعقبها قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الإنسان:٣٠) ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر:٥٥،٥٦) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(التكوير:٢٧-٢٩)

فللإنسان ـ بنص هذه الآيات ـ مشيئة وإرادة ، ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى وإرادته ، فهو يشاء أعماله ويريدها ، لأن الله هو الذي شاء له أن يكون حرا مريدا ، فمشيئته ليست من ذاته ولا بذاته ، ولكنها من الله وبالله .

وكذلك للإنسان قوة وقدرة ، ولكنها ليس من ذاته ولا بذاته ، بل من الله وبالله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ (الروم:٥٤).

ولهذا كان من المجمع عليه بين المسلمين كافة أن « لا حول ولا قوة إلا بالله» وقال القرآن :﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾(الكهف :٣٩) ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:١٢٧) .

فالإنسان كما تصوره نصوص القرآن والسنة ، مخلوق حر مريد ، له قدرة إيجابية فاعلة ، ولكن من الذي خلقه كذلك ، وجعله كذلك ؟ من الذي وهبه العقل الذي يدبر ، والإرادة التي ترجح ، والقدرة التي تنفذ ، ولو شاء ما منحه شيئا من ذلك ، ولو شاء لسلبه ما أعطاه؟ إنه الله .

هذا هو التوازن الذي اتسمت به عقيدة الإسلام في شأن الإنسان ، كما اتسمت به شريعته وأخلاقه ، فليس هو (آلة) تنفعل ولا تفعل ، تتأثر ولا تؤثر ، كما توهم بعض الناس ، وليس هو (إلها) يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد بإطلاق ، كما ظن

آخرون ، ولكنه «مخلوق» إيجابي فعال ، كرمه الله ، وجعله في الأرض خليفة ، واستعمره فيها ، ومنحه من الطاقات والمواهب ما يستطيع به السيادة في الكون ، والخلافة في الأرض ، والعمارة لها ، والانتفاع بما سخر الله له ، في السماوات وفي الأرض ، ولكن كل ذرة فيه إنما هي بخلق الله ، وكل ما يقدر عليه إنما هو بإقدار الله ، وكل ما يشاؤه ويختاره إنما هو بتمكين الله ، وكل ما يفعله إنما هو في دائرة سلطان الله ، ووفق سننه تعالى التي نصبها في الكون ، ورتب عليها آثارها ، وجعل من شأنها العموم والثبات ، فلا تحابي ولا تتبدل ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

هذا ما تصوره النصوص المحكمات ، وهو ما يحسبه الإنسان من نفسه ، وما يشهده في غيره .

● أمثلة مما قاله هؤلاء الأئمة

يقول إمام الحرمين في كتابه : «النظامية» : قد تقرر عند كل حاظ بعقله ، مترق عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد ، أن الرب سبحانه وتعالى مطالب عباده بأعمالهم في حياتهم ، وداعيهم إليها ، ومثيبهم ومعاقبهم عليها في مآلهم ، ومبين بالنصوص التي لا تتعرض بالتأويلات : أنه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم ، ومكنهم من التوصل إلى امتثال الأمر ، والانكفاف عن مواقع الزجر ، ولو ذهبت أتلو الآي المتضمنة لهذه المعاني لطال المرام ، ولا حاجة إلى ذلك ، مع قطع اللبيب المنصف به. ومن نظر في كليات الشرائع ، وما فيها من الاستحثاث والزواجر عن الفواحش الموبقات ، وما نيط ببعضها من الحدود والعقوبات ، ثم تلفت على الوعد والوعيد ، وما يجب عقده من تصديق المرسلين في الإنباء عما يتوجه على المردة العتاة ، من الحساب والعقاب ، وسوء المنقلب والمآب ، وقول الله لهم : « لم تعديتم وعصيتم وأبيتم؟ وقد أرخيت لكم الطِول ، وفسخت لكم المهل ، وأرسلت الرسل ، وأوضحت المحجة ، لئلا يكون للناس على الله حجة؟ وأحاط بذلك كله ، ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب إيثارهم واختيارهم واقتدارهم ، فهو مصاب في عقله ، أو مستقر على تقليده ، مصمم على جهله»[1]!

---

(١) انظر: العقيدة النظامية .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :

«اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة ، وله مشيئة ثابتة ، وله إرادة جازمة ، وقوة صالحة ، وقد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد في غير ما آية كقوله : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(التكوير:٢٨،٢٩) ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ (المزمل:١٩) ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر:٥٥-٥٦).

ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن : (يعملون . يفعلون . يؤمنون . يكفرون . يتفكرون . يحافظون . يتقون) .

وقال في مقام آخر :

«من قال : إن الله أمر العباد بما يعجزون عنه إذا أرادوه إرادة جازمة ، فقد كذب على الله ورسله ، وهو من المفترين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٢) قال أبوقلابة : «هذا لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة» .

«لكن مع ذلك يجب أن نعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن».

وقال المحقق ابن القيم :

«العبد بجملته مخلوق لله تعالى ، جسمه وروحه ، وصفاته وأفعاله وأحواله فهو مخلوق من جميع الوجوه ، وخلق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله ، وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته وتكوينه ، فهو الذي خلقه وكوّنه كذلك ، وهو لم يجعل نفسه كذلك ، بل خالقه وباريه جعله محدثا لإرادته وأفعاله ، وبذلك أمره ونهاه ، وأقام عليه حجته ، وعرضه للثواب والعقاب ، فأمره بما هو متمكن من تركه ، ورتب ثوابه وعقابه ، على هذه الأفعال والتروك التي مكنه منها ، وأقدره عليها وناطها به ، وفطر خلقه على مدحه وذمه عليها : مؤمنهم وكافرهم ، المقر منهم بالشرائع والجاحد لها . فكان مريدا شايئا بمشيئة الله له ، ولولا مشيئة الله أن يكون

شايئا لكان أعجز وأضعف من أن يجعل نفسه شايئا ، فالرب سبحانه أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة وعرّفه ما ينفعه وما يضره ، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته ، وقدرته في الطريق التي يصل به إلى غاية صلاحه» .

● من شبهات الجبريين : سبق العلم الإلهي

يقول الجبريون :

إن سبق العلم الإلهي بوقوع الفعل من الإنسان أو بعدمه ينفي اختياره فيه ، فإذا علم الله أن زيدا من الناس سيشرب الخمر كان شربه واقعا لا محالة ، وعدم شربه ممتنعا قطعا ، وإلا لانقلب العلم القديم جهلا .

وهذه الشبهة باطلة من وجوه :

أولها : أن الله يعلم الأمور على ما هي عليه ـ فهو يعلم أن فلانا سيقترف هذا الإثم بإرادته واختياره ، فهو يقع حسب ما علم .

الثاني : أن العلم صفة كاشفة فقط ـ وليست موجبة مؤثرة ـ إنما الموجب المؤثر هو مشيئة الله تعالى وقدرته ، والعلم إنما يكشف حقائق المعلومات . فهو أشبه بالمرآة التى تعكس حقيقة الشيء ، كما هو ، ولا تنشئه .

الثالث : أن سبق العلم بوقوع الفعل أو عدمه لو كان يقتضي الجبر لكان الله جل شأنه مجبورا على أفعاله ، ولم تكن مقدورة لله ، لأنها كلها مما سبق به العلم . والنصوص القطعية أو البراهين العقلية ، والإجماع : على أنه تعالى مختار في أفعاله كلها .

ولقد ذكرت وأنا أدرِّس موضوع القدر لطلابي مثلا موضحا لهذه الفكرة : وهو ما إذا كان أستاذ يدِّرس لتلاميذه ، وهو يعرفهم معرفة جيدة ، فكتب في مفكرته الخاصة ملاحظة أمام اسم كل واحد منهم ، فزيد سيأخذ درجة ممتاز ، وعمرو درجة جيد جدا ، وبكر درجة مقبول ، وخالد راسب ، ثم في آخر السنة بعد الامتحانات بالفعل كان ما أخذه كل واحد منهم من الدرجات وفقا لما كتبه الأستاذ في مفكرته ، فهل من حق هؤلاء الطلاب ـ إذا علموا بما كتبه أستاذهم في مفكرته ـ أن يقولوا له : أنت كتبت عندك مقدما مفكرة أو تقريرا بتقديراتنا ، لأن ما كتبه الأستاذ إنما كتبه لنفسه ، وهو لا يؤثر في طلبته شيئا ، إنما يعبر عن صدق علمه أو كذبه .

● شبهات أخرى للجبريين

ومن أدلة الذين يميلون إلى الجبر أو شبهاتهم التي يوشوشون بها : أنهم يقولون :

إذا كان للإنسان إرادة ومشيئة في أعماله الاختيارية فما علاقتها بإرادة الله ومشيئته؟

أيكون للإنسان مشيئة دون مشيئة الله؟ أي مستقلة عنها .

أم يكون للإنسان مشيئة فوق مشيئة الله؟ أي غالبة عليها .

أم يكون للإنسان مشيئة مع مشيئة الله؟ أي شريكة لها .

فإن ادعيتم أن له مشيئة دون مشيئة الله فقد اكتفى بها عن مشيئة الله ، واستغنى عن الله .

وإن زعمتم أن له مشيئة فوق مشيئة الله ، فقد جعلتم مشيئة المخلوق غالبة على مشيئة الخالق .

وإن قلتم : إن له مشيئة مع مشيئة الله فقد جعلتم مع الله شريكا في مشيئته .

فاختاروا لكم إحدى هذه الثلاث : إما الاستغناء عن الله ، أو الغلبة على الله ، أو الشرك مع الله !

وجوابنا : أننا لا نختار أحد هذه الأقسام الثلاثة ، بل نختار قسما آخر لم تذكروه .

وهو : أن للإنسان مشيئة بمشيئة الله ، كما أن له قدرة بإقدار الله .

وهذا الذي نقوله هو الذي يشهد به الحس والواقع ، كما أنه الذي جاءت به النصوص المحكمات . فالإنسان يحس من نفسه في أعماله الاختيارية أنه يريدها ، وينويها وهو يفكر فيها أولا ، ويزن نتائجها بعقله ، ثم يعزم أن يفعل أو يترك ، فإذا صمم على الفعل أقدم طائعا مختارا ، وإلا أعرض وغير وجهته .

ومع هذا يحس أحيانا بتحويل فجائي في نفسه عن شيء كان يرغب فيه ، فيفسخ عزيمته ، ويحول وجهته ، أو يتجه فجأة إلى شيء كان راغبا عنه ، نافرا منه ، فإذا هو طالب له ساع إليه وحريص عليه! ويقول القرآن الكريم ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر:٥٤-٥٦) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير:٢٧-٢٩).

فقد أثبتت هذه الآيات الكريمة للإنسان مشيئة خاصة ، ولكنها مستمدة من مشيئة الله ، فالإنسان بنص هذه الآيات يشاء بمشيئة الله ، أو هو يريد لأن الله أراد له أن يريد ، فللإنسان مشيئة ليست مستقلة عن مشيئة الله ، ولا فوقها ، ولا معها ، إنها مشيئة بالله ، ومن الله .

وفرق كبير بين هذه المشيئة الإنسانية وبين مشيئة الله تعالى .

هذه مشيئة مخلوقة ، وتلك مشيئة خالقة .

هذه مشيئة تابعة ، وتلك مشيئة مستقلة .

هذه مشيئة محدودة ، وتلك مشيئة مطلقة .

هذه مشيئة ناقصة ، وتلك مشيئة كاملة .

مشيئة الإنسان تحدها قدرته المقيدة ، وطاقته القاصرة ، فكم من أشياء يريدها ، ويسعى إليها ولا تتحقق ، وكم من أشياء يريدها فلا يتحقق إلا نقيضها ، وكم من أشياء يكرهها تحل به رغم إرادته ، وكم من أشياء يحبها تأتى إليه سعيا دون جهد منه أو محاولة .

وهذا ما جعل بعض الناس يؤمنون بشيء يسمونه (الحظ) أو (البخت) أو (الجد) كقول بعضهم :

إذا الجد لم يك لي مسعدا ... فما حركاتيَ إلا سكون
إذا لم يكن ما يريد الفتى ... على رغمه فليرد ما يكون

وقول الآخر :

أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد ... وقصر علمي أن ينال المغيبا

أما مشيئة الله تعالى فلا يحدها شيء ، ولا يحول دونها حائل ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

ويحتج بعض المجبرة بما يروي عن الإمام علي رضي الله عنه ، وقد سأله أحدهم عن القدر فقال علي : إني سائلك عن ثلاث ، ولن يجعل الله لك ولمن أنكر المشيئة مخرجا ، أخبرني : أخلقك الله عز وجل كما شاء أو كما شئت؟ قال : بل كما شاء .

قال على : أفتجيء يوم القيامة كما شاء أو كما شئت ؟

قال : بل كما شاء .

قال علي : أخلقكِ لما شاء أو لما شئت ؟

قال الرجل : لا ، بل لما شاء .

قال علي : فليس لك من المشيئة شيء .

وإذا افترضنا صحة هذه المحاورة ، فليس فيها دليل لدعاة الجبر ، فإن الله قد خلق الإنسان كما يشاء ، لما يشاء ، وسيبعثه يوم القيامة كما يشاء .

ولكن مما لا ريب فيه أن الذي خلق الإنسان كما شاء ، قد أعلمنا في كتابه أنه شاء له أن يكون كائنا ذا إرادة ، وقد خلقه لما يشاء من عبادته وخلافته في الأرض ، وليبتليه بالخير والشر ، وبهذا نرى أن هذه الكلمات (خلق الله الإنسان كما يشاء لما يشاء) ليست حجة للجبريين ، بل هي أساس لإثبات مسؤلية الإنسان الثابتة بمشيئة الله قطعا .

● قدرة الإنسان وقدرة الله

وما حدث من خلاف في إرادة الإنسان ومشيئته وعلاقتها بالمشيئة الإلهية حدث مثله في قدرة الإنسان وصلتها بالقدرة الإلهية وأثرها في أفعال الإنسان .

هل تعد قدرة الإنسان مؤثرة في وجود فعله أم لا ؟

يقف الكثيرون حيارى بين طرفي السؤال : فإن قيل بالتأثير لزم الشرك بإثبات قدرة مع قدرة الله ، وإن سلبنا التأثير عن قدرة العبد لزم من ذلك أن يكون مجبورا غير مختار . فكيف توجه إليه الأمر والنهي والوعد والوعيد، وترتب عليه الثواب والعقاب، وقامت سوق الجنة والنار؟

والمخرج من هذا أنَّا لا نقول ما قاله المعتزلة من إثبات قدرة تنفرد بالتأثير والاختراع ، وتستبد بالخلق والابتداع ، فيلزم من هذا نوع من تأليه الإنسان وتقييد سلطان الألوهية .

كما لا نقول بإثبات نوع من المشاركة والمعاونة في صفة من صفات الفعل أو في وجه من وجوهه ، كما قال بعض علماء الكلام من أهل السنة أنفسهم ، فإنه لون من إشراك المخلوق مع الخالق في التأثير وإن كان دون الإشراك الأول .

وإنما نقول : إن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بخلق الله بواسطة القدرة المخلوقة التي أودعها سبحانه في عبده ، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله تعالى الفعل لها ، كما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب .

وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركا ، وإلا كان إثبات جميع الأسباب شركا ، وقد قال الحكيم الخبير يصف السحاب ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (الأعراف:٥٧) ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (النمل:٦٠) وقال : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ (التوبة:١٤) فبين أنه ساق السحاب بالرياح ، وأنبت النبات بالماء ، كما بين أنه المعذب للكافرين ، وأن أيدينا أسباب وآلات ووسائط وأدوات في وصول العذاب إليهم .

نحن لا نقول بإثبات قدرة للإنسان المخلوق فوق الله ، ولا دون الله ، ولا مع الله ، بل نقول : بإثبات قدرة له من الله وبالله .

وبهذه القدرة يفعل ويترك ، ويأخذ ويعطي ، ويؤمن أو يكفر ، ويتقي أو يفجر ، ولهذا كان المجمع عليه أنه «لا حول ولا قوة إلا بالله» فللإنسان حول وله قوة ، ولكن حوله ليس من نفسه ، وقوته ليست بذاته ، وإنما حوله وقوته بالله.

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (الكهف:٣٩) وقال جل شأنه : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾(النحل:١٢٧).

ولا شك أن هذه القدرة المودعة في الإنسان نعمة عظيمة ، والنعم كلها من الله إيجادا وإمدادا ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) .

هذا هو الإنسان ، حر مختار مريد ذو قوة إيجابية فاعلة ، ولكن من الذي خلقه كذلك ؟ وجعله كذلك ؟ من الذي وهبه العقل الذي يدبر ، والإرادة التي ترجح ، والقدرة التي تنفذ؟ إنه هو الله .

فلا تعارض إذن بين الاعتقاد بفاعلية الإنسان وإيجابيته والاعتقاد بالفاعلية الشاملة لله جل شأنه ، لأن فاعلية الإنسان ليست إلا أثرا لفاعلية الله الواحد القهار . وهذا هو الذي نص عليه أئمة أهل السنة بصريح العبارة .

فهذا إمام الحرمين في كتابه (النظامية) ينكر على من قال : لا أثر لقدرة الإنسان في مقدوره أصلا ، لأن هذا القول إبطال للشرع ، وتكذيب لما جاء به المرسلون ، إذ لم يبق ـ بناء على هذا القول ـ متعلق لتكليف العباد .

ولم يرتض إمام الحرمين جواب من قال : لله تعالى أن يفعل ما يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣) فإن هذا الجواب ليس له حاصل ، وكلمة حق أريد بها باطل ، فإن الله تعالى طالب عباده بما أخبر أنهم ممكنون من الوفاء به ، فلم يكلفهم إلا على مبلغ الوسع والطاقة ، كما أنكر أن يكون وقوع الفعل شركة بين القدرة الإنسانية الحادثة ، والقدرة الإلهية القديمة ، فإن الفعل الواحد يستحيل حدوثه بقادرين إذ الواحد لا ينقسم فإما أن يقع بقدرة الله فتستقل به ، ويسقط أثر القدرة الحادثة أو العكس .

ويستحيل أن يقع بعضه بقدرة الله تعالى فإن الفعل الواحد لا بعض له ، وكذلك يمتنع القول بأن العبد خالق أعماله ، فإن فيه الخروج عما درج عليه سلف الأمة واقتحام دركات الضلال (بدعوى الاستبداد والاستقلال عن الله تعالى) .

قال : (وهذه مهواة لا يسلم من غوائلها إلا مرشد موفق ، إذ المرء بين أن يدعي الاستبداد (أي كما هو قول المعتزلة) ، وبين أن يخرج نفسه عن كونه مطالبا بالشرائع ، وفيه إبطال دعوة المرسلين (أي كما هو قول الجبرية) وبين أن يثبت نفسه شريكا لله ، في إيجاد الفعل الواحد (أي كما هو قول بعض متكلمي أهل السنة) ، وهذه الأقسام بجملتها باطلة . قال :

« ولا ينجي من هذا الملتطم ذكر اسم محض ، ولقب مجرد ، من غير تحصيل معنى (أي كقول الأشعري بالكسب) وذلك أن قائلا لو قال : العبد يكتسب ، وأثر قدرته الاكتساب ، والرب سبحانه خالق لما العبد مكتسب له ـ قيل له : ما الكسب؟ وما معناه؟ وأديرت الأقسام المتقدمة على هذا القائل ، فلا يجد عنها مهربا » .

يريد بالأقسام المتقدمة : أن يكون للكسب الأثر في إيجاد الفعل مستقلا عن قدرة الله ، أو شركة بينهما ، أو يستقل ببعض الفعل ، أو لا يكون لهذا الكسب أثر في إيجاد الفعل أصلا ، وكلها باطلة .

ولهذا لزم القول بأن للإنسان قدرة حادثة مؤثرة في مقدورها ، ولكن كيف يتفق هذا مع الاعتقاد بشمول قدرته ومشيئته تعالى لكل شيء ، ومع جواز إضافة الأفعال إليه تعالى ؟

إن إمام الحرمين يوضح ذلك فيقول :

« قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع ، والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بها قطعا ، ولكنه يضاف إلى الله سبحانه تقديرا وخلقا ، فإنه وقع بفعل الله ـ وهو القدرة ـ فعلا للعبد ، وإنما هي صفته ، وهي ملك لله ، وخلق له ، فإذا كان مُوقع الفعل خلقا لله ، فالواقع به مضاف خلقا إلى الله تعالى وتقديرا ، وقد ملك الله العبد اختيارا يصرف به القدرة ، فإذا أوقع بالقدرة شيئا آل الواقع إلى حكم الله ، من حيث إنه وقع بفعل الله .

« ولو اهتدت إلى هذا الفرقة الضالة (يعني المعتزلة) لم يكن بيننا وبينهم خلاف ، ولكنهم ادعوا استبدادا بالاختراع ، وانفرادا بالخلق والإبداع ، فضلوا وأضلوا» : انتهى كلام إمام الحرمين .

فإضافة الأفعال إليه تعالى إضافة صحيحة ؛ لأنه شاءها وقدرها ، بل خلقها ، من حيث إنها نتيجة ما انفرد بخلقه تعالى ، وهو القدرة ، ولو لم يرد وقوع مقدورها لما أقدره عليه ، ولما هيا له أسباب وقوعه ، ومن هدي إلى هذا استضاء له الحق المبين .

قال ابن القيم : ولا تظن به تعالى ظن السوء وتجعل له مثل السوء : أنه معاقب عباده على ما لم يفعلوه ، ولا قدرة لهم على فعله ، بل على ما فعله هو دونهم واضطرهم إليه ، وجبرهم عليه ، وذلك بمنزلة عقوبة الزمن (المقعد) إذا لم يطر إلى السماء ، وعقوبة أشل اليد على ترك الكتابة ، وعقوبة الأخرس على ترك الكلام !

• شيوع عقيدة الجبر

ظل المسلمون في العهد النبوي ، وعهد الصحابة وتابعيهم بإحسان ، على إيمانهم النقي الفطري ، بقدر الله تعالى ، الذي تلقوه من صريح القرآن ، ومن هدي النبوة ، والذي لا ينافي عندهم أبدا ، مسئولية الإنسان عن أعماله الاختيارية ، بناء على إرادته لها ، وقدرته عليها ، وكسبه أو اكتسابه لها ، حتى دخلت على المسلمين أفكار وثقافات جاهلية ، تسربت إليهم من أمم أخرى ، ذات أديان محرفة ، أو نِحَلٌ وفلسفات بشرية قاصرة ، فكدرت عليهم صفاء عقيدتهم ، ولوثت مجرى الإيمان النقي المتوازن بأدرانها وأدناسها ، وإفراطها أو تفريطها.

لهذا يقال : إن أول من ابتدع الكلام في القدر ، والجدال فيه : رجل من المجوس ، سماه بعضهم (سيسوبه) أو (سوس) ، وعنه تلقى معبد الجهني في البصرة ، وعن معبد أخذ غيلان الدمشقى.

ويقال أيضا : إن أول ما حدث الكلام في القدر في الحجاز ، كان حينما احترقت الكعبة في عهد الأمويين ، فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى! فرد عليه آخر قائلا : لم يقدر الله هذا !

واختلاف الناس في مثل الأحداث الكبيرة وارد ، ونزاعهم في تعليلها وراد أيضا ، وليس من الضروري أن يكون ذلك من فعل السياسة ، فالميل إلى (الفكرة الجبرية) موجود في كثير من الناس ، وليس من خلق السياسة وابتداعها حتما ، كما ذهب إلى ذلك بعض من كتبوا في القدر .

ولكن سياسة الاستبداد والطغيان ، من شأنها أن تروج القول بعقيدة (الجبر) وتشيعها قاصدة أو غير قاصدة .

أما قاصدة فلأن العقيدة (الجبرية) تشيع في الناس الاستسلام للأمر الواقع ، والخضوع لما هو كائن بالفعل ، دون محاولة للتغيير ، أو عزيمة على المقاومة ، فإنما يغير ويقاوم من يرى لنفسه إرادة وقدرة ، أما من يرى نفسه مجرد ريشة في

مهب رياح الأقدار ، فمن أين له إرادة لمقاومة الفساد ، أو التغيير للمنكر ، أو الأخذ على يد الظالم؟

إنه يقول : إن الله يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويؤتي الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، فلا تعترض على مشيئة مالك الملك . وينشد قول الشاعر :

ملك الملوك إذا وهب لا تسألنّ عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

وهو كلام حق أريد به باطل .

وشيوع مثل هذه الأفكار في مجتمع ما ، يخدم ـ ولا شك ـ السلطان القائم ، ويطوع له الشعوب ، ويسلس قيادها له ، بدون حاجة إلى استعمال القوة والعنف ، فهذا هو قدرها ، وهذا هو نصيبها !

فلا غرو أن يروج هذه الفكرة أو العقيدة ، أئمة الجور ، وسلاطين الاستبداد وأصحاب الملك العضوض والملك الجبري ، لما وراءها من إفادة لهم .

وأما غير قاصدة ، فلأن تسلط الحكم المستبد على الرقاب ، وتحكمه في الدماء والأموال والأعراض والحرمات ، وسكوت الألسنة عن المعارضة ، وعجز الأيدي عن المقاومة ، يخلق لدى الجماهير ، روحا انهزامية ، وفلسفة تشاؤمية ، تبرر هذا الاستسلام والعجز والانهزام و(اللامبالاة) .

والعقيدة الجبرية تمثل هذه الفلسفة المتقاعسة ، وتغذي هذه الروح الانهزامية ، وتبرر هذا النكوص ، وتغلفه بغلاف ديني ، فيهرب بعض الناس من المسئولية ـ مسئولية الإصلاح والتغيير وجهاد الظلم والمنكر ـ ويحمل وزر الأمور كلها على كاهل القدر ، فإذا رأوا الأموال تصادر ظلما ، قالوا : هذا قضاء الله ، وإذا رأوا الدماء تسفك حراما ، قالوا : هذا قدر الله ، وإذا وجدوا الحياة كلها تسير في طريق الشيطان ، قالوا : إرادة الله ، أقام العباد فيما أراد .

وبهذا العجز والكسل والجبن والهرب ، يريح الناس أنفسهم من تحمل التبعة ، مفتين أنفسهم بأنهم ليس لهم من الأمر شيء ، ناسين قول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾(الأنفال:٢٥)

وقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ، ولم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »[1].

وعلى أهل العلم والدعوة ورجال الثقافة والتربية ، أن يقاوموا شيوع العقيدة الجبرية في أوساط المسلمين ، فهي عقيدة مدمرة تقتل روح الإبداع ، وروح المغامرة ، وتنشيء في الإنسان الرضا بواقعه الأدنى ، دون طموح إلى المثل الأعلى .

وعلى الجميع أن يشيعوا بدل عقيدة الجبر : العقيدة الصحيحة ، التي تؤمن بالقدر ، وتؤمن في الوقت ذاته بمسئولية الإنسان عن نفسه وعن المجتمع من حوله فهذا هو مقتضى التكليف واستخلاف الإنسان في الأرض ، وإنزال الكتب ، وبعث الرسل ، ورصد الثواب والعقاب ، وقيام سوق الجنة والنار .

وعلى الجميع أن يرفضوا (كل الجبريات) المختلفة من (جبرية سياسية) تؤمن بأن (الدنيا لعبة إسرائيل) وترى (العالم أحجارا على رقعة الشطرنج) وإن هناك حكومة خفية ، تحرك العالم من رواء ستار .

ومن (جبرية اجتماعية) ترى الفرد (دمية) يحرك خيوطها المجتمع ، الذي يصنع للفرد أفكاره ، وميوله وتوجهاته ، التي تخطط له حاضره ومستقبله ، كما هي فلسفة (دوركايم) ومن وافقه من الاجتماعيين .

يجب أن نرفض الجبريات كلها ، لنعلن أن الإنسان مخلوق حر مختار مكلف مسئول ، وليس ريشة في مهب الريح ، وأنه لا ينفعه في الدنيا إلا عمله ، ولا في الآخرة إلا أن يسعى لها سعيها ، وهو مؤمن ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم:٣٩-٤١).

* * *

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر . كما في صحيح الجامع الصغير (١٩٧٣).

منشأ الإفراط والتفريط في القدر

ومعظم الانحراف والفساد من الإفراط والتفريط الذي دخل على عقائد الفرق المختلفة في مسألة القضاء والقدر ، أو الجبر والاختيار ، إنما جاء من عوامل أربعة هذه العوامل هي :

أولا : ضيق النظر إلى صفات الألوهية

أول دلائل الإفراط والتفريط يتمثل في ضيق النظر إلى صفات الله عز وجل ، فالجبرية نظروا إلى شمول مشيئة الله تعالى ، وعموم قدرته ، وعظيم ملكه ، وكمال ربوبيته ، وهيمنته على كل ما في الوجود ، وأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالق كل شيء ، ومقدر كل شيء ، ومدبر كل شيء ، فلا رب غيره ، ولا خالق سواه .

ومن هنا عظموا الله أن يقع في ملكه شيء بغير مشيئته المباشرة ، وقدرته المباشرة ، فكل ما يفعله العباد إنما هو فعل الله في الحقيقة ، وإن نسب إلى العباد مجازا ولكنهم أغفلوا جانبا هاما من صفات الألوهية ، وهو جانب العدل الكامل ، والحكمة البالغة ، والرحمة الواسعة ، التي وصف الله بها نفسه ، إذ كيف يكلف عباده بما يفعله هو ، لا بما يفعلون هم ، وكيف يلومهم ويوبخهم على ما ليس من عملهم ، وكيف يدخلهم النار خالدين فيها أبدا ، وهم ليسوا إلا آلات في يد القدر؟ إنهم يكونون حينئذ كما قال الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفا ، وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

والمعتزلة : نظروا إلى الجانب الذي أغفله الجبرية من صفات الله تعالى ، وأنه سبحانه حكم عدل ، ولا يظلم أحدا ، ولا يعاقبه على ما لم يعمل ، كما أنه حكيم لا يأمر ولا ينهى عبثا ، ويستحيل أن يكون الله هو خالق العمل ، والإنسان هو حامل وزره ، ومستحق العقاب عليه ، كما أن هذه المعاصي والشرور التي تصدر عن العباد ، لا يمكن أن تكون من الله وبإرادته ، لأنه أعدل وأحكم وأرحم من أن يريد القبائح والشرور ويقدرها .

ظن المعتزلة أنهم إذا أثبتوا مشيئة عامة ، وقدرة تامة ، وخلقا متناولا لكل شيء لزم من ذلك القدح في عدل الله تعالى وحكمته ، فعندهم أن العبد هو المحدث الخالق للطاعة وللمعصية ، والله تعالى ما خلق هذه ولا تلك ، ولا أراد هذه ولا تلك .

وليس عندهم لله نعمة على عباده المؤمنين في الدنيا ، وإلا وقد أنعم بمثلها على الكفار ، فأبو بكر وأبو لهب ، وعمر وأبو جهل ، مستوون في نعمة الله الدينية ، إذ كل منهم أرسل الله إليه الرسول ، ومكنه من الفعل ، لكن هذا فعل الإيمان بنفسه من غير شيء خصه الله به ، وذلك فعل بنفسه الكفر من غير شيء حرم منه ، والله حبّب الإيمان إلى هذا وهذا ، وكره الكفر والفسوق والعصيان إلى هذا وهذا ، ولكن المؤمنين كرهوا ما كرّهه الله إليهم ، بغير نعمة خصهم بها ، والآخرون لم يكرهوا ما كرّهه الله إليهم .

وبهذا نزهوا الله في جانب ، وأغفلوا الجانب الآخر الذي نظر إليه دعاة الجبر ومن قاربهم ، من عموم المشيئة والقدرة والخلق .

فالجبرية : نظروا إلى الصفات التي بها كمال ملك الله ، والمعتزلة : نظروا إلى الصفات التي بها تمام حمد الله .

والحقيقة أنه تعالى ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ كما نطق كتابه الكريم ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن: ١) وثاني الأسباب والدلائل على الإفراط والتفريط هي ضيق النظر إلى الإنسان نفسه: هل هو فاعل أو منفعل أو هما جميعا؟

ثانيا : ضيق النظر إلى الإنسان نفسه

وهذا العامل مترتب على العامل الأول . ذلك أن في الموجودات نوعين ظاهرين :

(أ) فاعل لا ينفعل أبدا ، وهو الله تعالى .

(ب) منفعل لا يفعل أبدا ، وهو الجمادات والآلات ومافي معناها .

فإلى أي النوعين ينسب الإنسان ؟

أما الذين سيطر على تفكيرهم ومشاعرهم عدل الله تعالى وحكمته ورحمته ، وتنزيهه عن الظلم والسفه والعبث ـ وهم المعتزلة ويسمّون «القدرية» فنظروا إلى الإنسان باعتباره فاعلا محضا غير منفعل في فعله . وقالوا : إنه هو خالق أفعال نفسه ، بمحض إرادته وقدرته ، مستقلا عن إرادة الله وقدرته. فكأنهم خلعوا على الإنسان شيئا من صفات الألوهية . فهو يفعل وحده ما يريده ، وإن لم يرده الله ، وهو يعصي الله برغم مشيئة الله ، وهو الذي يهدي نفسه أو يضلها إن شاء .

وأما الذين سيطر على تفكيرهم ومشاعرهم عظمة ملك الله ، ونفوذ مشيئته ، وعموم قدرته ، فلم يشهدوا في الإنسان إلا مخلوقا منفعلا غير فاعل أصلا ، تجري عليه الأحكام والأفعال ، كما تجري على الآلات ، وجعلوا حركته بمنزلة حركات الأشجار ، ولم يجعلوه فاعلا إلا على سبيل المجاز ، فـ «قام وقعد ، وأكل وشرب وصلى وصام» عندهم بمنزلة «مرض وألم ومات» ونحو ذلك مما هو فيه منفعل محض .

وكلا الفريقين نظر إلى المسألة بعين عوراء ، كما قال ابن القيم رحمه الله ولم يعط الأمر حقه .

وأساس هذا النظر الجزئي أو الجانبي للألوهية أو للإنسان : هو التصورات الدخيلة التي غزت أفكار المسلمين من بيئات دينية ، أو فلسفية أخرى ، ما بين معظّم للإنسان حتى يكاد يجعله إلها ، وما بين محقر لشأنه حتى يكاد يتصوره جمادا .

والذين وفقهم الله إلى الاعتدال من أهل العلم والسنة ، أعطوا كلا الأمرين حقه ، ولم يبطلوا أحدهما بالآخر ، ونظروا إلى الإنسان باعتباره فاعلا منفعلا . هو فاعل على الحقيقة وذو قدرة مؤثرة ، وإرادة مرجحة ، ولكنه في هذه الفاعلية منفعل للفاعل الذي لا ينفعل بوجه من الوجوه ، وهو الله الواحد القهار . فهو فاعل ، لأن الله خلقه فاعلا ، وهو مريد ، لأن الله تعالى أراد له أن يكون مريدا ، وجعله مريدا مختارا .

ثالثا : تفريق النصوص

وثالث الدلائل هنا هو : تفريق النصوص ، أعنى تفريق النصوص في القضية الواحدة ، أو أخذ بعضها دون بعض ، أو ضرب بعضها ببعض : فكل صاحب مذهب

أو فكرة يكوّن مذهبه أو فكرته نتيجة التقليد ، أو التأثير ، أو التفكير الخاص ، ثم يحاول أن يجر النصوص لتؤكد فكرته ، وتنصر ما ذهب إليه ، فإذا وجد نصوصا أخرى تعارضه ، وتنقض دعوته أو لا تتفق معها ، رد هذه النصوص إن استطاع أو اعتسف تأويلها ، وأخرجها عما يفهمه المعتدل منها .

والسائر في هذا الدرب إنما يتبع سنن اليهود وأهل الكتاب ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فيما نعاه الله عليهم ، وقرعهم عليه أشد التقريع ، وذلك أنهم آمنوا بما وافق أهواءهم من الكتاب ، وكفروا بما خالفه ، أو حرفوه وبدلوا معناه .

وفي ذلك جاء القرآن الكريم مخاطبا لهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾(البقرة:٨٥) كما قال :﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾(النساء:٤٦)

المعتزلة مثلا يستدلون لمذهبهم بإنكار الله على المشركين قولهم : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:١٤٨) ويقولون : إن إنكاره عليهم قولهم يدل على أنه تعالى لم يشأ منهم الشرك .

ولو أنصفوا لوجدوا الآيات الأخرى في نفس السورة ـ الأنعام ـ تقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ (الأنعام:١٠٧) ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (الأنعام:١١٢) ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (الأنعام:١٣٧) ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام:١٤٩) .

والجبرية يستدلون لمذهبهم بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء:٧٨) فيقولون : قد نطق القرآن بأن أعمال الإنسان ـ حسنات كانت أو سيئات ـ من عند الله : وليست من عند الإنسان . وهذا هو مذهبنا .

ويغفلون أن الحسنة والسيئة في الآية ليست هي الطاعة والمعصية ، بل هي النعمة والمصيبة . فهي مثل قوله : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٨) وقوله :﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ (آل عمران:١٢٠)

وإذا كانت الحسنات والسيئات في الآية هي النعم والمصائب من النصر والفتح ، أو من الفشل والهزيمة ، وما إلى ذلك ، فالقمسان من عند الله الذي يبتلي بهذه وتلك ،

تبعا لسنته وحكمته ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥) ونسبة السيئة إلى الرسول ﷺ إنما هي من باب التطير به وبدعوته ، على نحو ما حكى الله عن قوم فرعون في نسبتهم الحسنة إلى أنفسهم ، والسيئة إلى موسى عليه السلام وأصحابه المؤمنين : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:١٣١)

ثم يقطع هذه الآية التي استشهدوا بها من سورة النساء عن الآية التالية ، وهي قوله سبحانه : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (النساء:٧٩) فإضافة الآية سبب السيئة إلى نفس الإنسان ، تبطل تعلقهم بالآية الأولى .

ولا تناقض بين هذه الآية والآية السابقة ، فإن إضافة الأمور كلها إلى الله ، باعتبار أنه سبحانه رب كل شيء ، وواضع نظام الكون كله بسننه وأسبابه ومسبباته فصح أن يقال : كل شيء من عنده .

وإضافة الحسنة إليه والسيئة إلى نفس الإنسان ، إضافة صحيحة أيضا ، ذلك أن الحسنة ـ بمعنى النعمة ـ منه تعالى بكل وجه من الوجوه ، وبدون أدنى عمل من العبد ، حتى الحسنة بمعنى الطاعة هو الذي هدى الإنسان إليها ، وأقدره عليها ، ويسر له سبيلها .

أما السيئة ـ بمعنى المصيبة ـ فمن نفس الإنسان ، وتجاوزه لحدود الله وتفريطه في شرع الله ، أو في سنن الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشورى:٣٠) .

وخاطب سبحانه المسلمين عندما انكسروا في غزوة أحد ، وقتل منهم سبعون من خيارهم ، بعد أن كانوا قد انتصروا في بدر ، وقتلوا فيها سبعين من المشركين وأسروا سبعين ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران:١٦٥) .

والأشاعرة يستدلون لمذهبهم في أن الله خالق أفعال العباد . بقوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم في مخاطبة قومه من عباد الأصنام : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات:٩٦) أي خلقكم وخلق عملكم ، بناء على أن (ما) مصدرية ، مع أن السياق يفيد أن المعنى : خلقكم وخلق ما تعملونه وتنحتونه من الأصنام ، و(ما) حينئذ موصولة ، ومعنى هذه الآية متمم للآية التي قبلها : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصافات:٩٥)

وهكذا نجد تفريق النصوص بعضها عن بعض ، أو قطعها عن سياقها الذي وردت فيه ، أمرا مشتركا بين الطوائف والفرق المتنازعة في هذا الميدان وفي غيره من ميادين الخلاف الفكرى .

رابعا : عدم تحديد المفاهيم

ومن أمثلة الإفراط والتفريط : موقفهم من الإجابة عن هذا السؤال : هل يريد الله جل وعلا المعاصي والقبائح من عباده أو لا يريدها؟

فإذا كان الكفر والضلال والظلم والفساد قد وقع بإرادته تعالى ، فكيف يتفق هذا مع اتصافه تعالى بالعدل والحكمة ، والجود والرحمة . فهو البر الكريم ، الرحمن الرحيم والعلي الحكيم؟

وإذا كان هذا الكفر والفسوق والعصيان واقعا بغير إرادته ، فكيف يتفق مع اتصافه سبحانه بأنه مالك الملك ، وصاحب الخلق والأمر ، ومن بيده ملكوت كل شيء ، وما شاءه كان ، وما لم يشأ لم يكن؟

ثار هذا السؤال عند المسلمين بعد عصر الرسالة والصحابة ، واختلف نظارهم في الإجابة عنه .

وجل الخلاف ناشيء من إطلاق الألفاظ المحتملة لأكثر من معنى ، وعدم تحديد مفاهيمها تحديدا دقيقا ، يجلو غموضها ، ويفصل إجمالها .

ذلك أن لفظة الإرادة تطلق ويراد بها أحد معنيين :

الأول : الإرادة اللازمة لمحبة المراد ، والرضا عنه ، والأمر به .

الثاني : الإرادة بمعنى المشيئة العامة التي يضادها القهر والإرغام .

وتسمى الإرادة بمعنى الأول «الإرادة الدينية» أو «الشرعية» وهي لا تستلزم وقوع المراد، بل قد يرده الله من عباده، ولا يقع منهم، بل يقع خلافه.

وقد ذكرت هذه الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥) ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة:٦) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٢٦-٢٨) وتسمى الإرادة بالمعنى الثاني (الإرادة الكونية) وهي التي تستلزم وقوع المراد، وهي التي يقول فيها المسلمون «ماشاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن» وفيها جاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠).

إذا تبين هذا الفرق نستطيع أن نقول:

إن الله لا يريد المعاصي بالمعنى الأول ـ أعنى الإرادة الدينية ـ لأنه تعالى لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء كما نطق القرآن الكريم، بل قال تعالى لما نهى عنه من العقائد والأعمال والأخلاق: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (الإسراء:٣٨) وفي هذا نص على أن السيئات والقبائح يكرهها الله.

وأما الإرادة بالمعنى الثاني ـ الإرادة الكونية ـ فلا ريب أن كل شيء في الكون خاضع لسلطانها، بمعنى أن شيئا في الوجود لا يحدث رغم إرادة الله سبحانه وإلا كان عاجزا مقهورا، وهو الواحد القهار.

وعلى هذا المعنى جاء مثل قول نوح: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ (هود:٣٤) وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ (المائدة:٤١) ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (الأنعام:١٢٥).

ملاحظة هامة :

وهنا ملاحظة جديرة بالتأمل وبالتسجيل والتنبيه : وهي أن الآيات التي ذكرت الإرادة بالمعنى الأول ، جاءت في صورة الخبر الصريح إثباتا ونفيا ، مثل : ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ ، ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ** ﴾ ، ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ** ﴾ . ﴿ **وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ . ﴿ **مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ** ﴾ هكذا بصفة الإخبار الصريح .

أما الآيات التي ذكرت الإرادة بالمعنى الكوني الآخر ، فلم تجيء في مثل هذه الصورة ، بل جاءت في صورة الشرط : ﴿ **إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ** ﴾. ﴿ **وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ** ﴾ . ﴿ **وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ** ﴾ . ومثل هذه الصيغة الشرطية لا تستلزم الوقوع حتما ، فليس لازما بالضرورة أن يريد الله إغواء قوم أو إضلالهم أو فتنتهم ، ولو أراد ذلك ما منعه مانع ، ولا وقف في سبيله معترض ، لأنه خالق كل شيء ، والملك كله بيديه .

فالآيات بهذا تقرر المبدأ فقط ، ولا تخبر عن الوقوع ، ولهذا لم يجيء في القرآن الكريم مثل هذا التعبير الخبري إنما يريد الله أن يغويكم أو أولئك الذين يريد الله أن يضلهم ، وما جاء في مثل هذه الصورة إنما نسب فيه الإضلال إلى الشيطان لا إلى الله مثل قوله تعالى : ﴿ **وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا** ﴾ (النساء:٦٠).

كل ما جاء في القرآن هو نفي العجز عن الله ، وتوهم أن يكون شيء في العالم قد حدث برغمه ودون مشيئته ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟** ﴾ (الأنعام:١٠٧) ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** ﴾(الأنعام:١١٢) ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً** ﴾ (هود:١١٨) ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا** ﴾(السجدة:١٣) ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟** ﴾(البقرة:٢٥٣).

وهذا التمحيص يوجب على كل كاتب أو متحدث في هذه المسألة الخطيرة أن يتحرى الدقة في عباراته ، وألا يطلق الألفاظ المجملة والمحتملة لأكثر من معنى ومن الخير كل الخير أن يلتزم العبارات الواردة نفسها في كلام الله وكلام رسوله ، فيكتفي هنا أن نقول : لو شاء الله ما عصى العصاة ، ولا أشرك المشركون ، بدل أن يقول : إن

الله يريد الشرك والعصيان ، ثم يحتاج إلى التفسير الإرادة بالإرادة الكونية وربما كان الكثيرون لا يفهمون التفرقة بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية . فيأخذون من إطلاق إرادة المعاصي أن الله يرضاها ويحبها .

وما أحسن ما قال بعض المحققين :

«لا يجوز أن يقال : إن الله يريد الكفر وسائر المعاصي على الإطلاق ؛ لأنه يوهم الخطأ ، لكن نقول : إن جميع ما يحدث في سلطانه تعالى بإرادته ، ومن الواجب الاحتراز عما يوهم الخطأ ، كالاحتراز عن الخطأ نفسه»

• ضلال المعتزلة وغلاة الصوفية في الإرادة

ولقد وهم المعتزلة حين ظنوا أن الإرادة تلازم الرضا والأمر دائما فما أراده الله فقد رضيه وأمر به ، ومما لا شك فيه ولا جدال أنه لا يرضى المعاصي ، ولا يأمر بها ، فهو إذن لا يريدها ، وهي تقع بإرادة الإنسان وحده ، دون إرادة الله عز وجل هكذا كان رأيهم .

والواقع أن لا تلازم بين الإرادة والأمر .

فقد يريد الله تعالى الشيء ويأمر به ، كإيمان المؤمنين.

وقد يريده ولا يأمر به ، ككفر الكافرين .

وقد يأمر به ولا يريده ، كإيمان أهل الكفر .

كما ضل الجبرية وكثير من المتصوفة ، حين زعموا أن الإرادة تستلزم الرضا والمحبة ، وما دام الكفر والعصيان بإرادة الله ، فقد صار مرضيا ومحبوبا لله عز وجل ، وعلينا نحن أن نرضى به ولا ننكره .

ومن المتصوفة من قال : إن الكافر أو الفاسق قد أطاع الله بكفره أو فسقه ، لأنه وإن خالف الأمر ، فقد وافق الإرادة والمشيئة ، فهو ينفذ مشيئة الله في الكون وفي الناس ، وتنفيذ المشيئة كتنفيذ الأمر ، كلاهما طاعة!

وفي هذا قال بعضهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ، ففعلي كله طاعات

بل بالغ بعضهم فقال : كفرت برب يعصى!!

ولهذا ترى مثل هؤلاء المتصوفة لا ينكرون على أهل الظلم والفساد ، ودعاة الباطل والإلحاد لأنهم يقولون : « من نظر إلى الخلق بعين « الشريعة » مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين « الحقيقة » عذرهم » !

وإنما يعذرون ؛ لأنهم مجبورن **أولا** : على ما هم فيه . **ثانيا** : لأنهم ينفذون إرادة الله وقدرة فيهم . فهذه هي (الحقيقة) المزعومة في نظرهم ! وفي هذا يقول ابن سينا في الجزء الخاص بالتصوف من (إشاراته) :

« العارف لا ينكر منكرا ، لأنه مستبصر بسر الله في القدر »

وعبر عن ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي في أبياته الشهيرة حين قال :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي — إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

وقد صار قلبي قابلا كل صورة — فدير لرهبان ، ومرعى لغزلان

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف — وألواح توراة ، ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أني توجهت — ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

وهذه الفكرة نجد نضحها على عوام الناس ، حين يُدْعَون إلي تغيير منكر ، أو تقويم معوج ، أو إصلاح فساد ، فتسمعهم يقولون : أقام العباد فيما أراد !

وهذه الفكرة معارضة للشرع ، مضادة للدين ، الذي أمر بمعاداة الكفر والفسوق ، وبتغيير المنكر ، باليد أو باللسان أو بالقلب ، حسب الاستطاعة ، ولعن الذين لا يتناهون عن المنكر على ألسنة أنبيائه ، وجعل السكوت على المنكر والرضا به موجبا لعذاب الله وبلائه في الدنيا والآخرة ، وجعل من أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله ، والموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، وقال تعالى : ﴿ **لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ (المجادلة:٢٢) .

● الصوفية وعقيدة الجبر

ولقد شاعت بين بعض طوائف المتصوفة روح جبرية دخيلة على الإسلام ولكن العارفين منهم أنكروها ، وقرروا بقوة ووضوح ما للإنسان من حرية واختيار .

قال جلال الدين الرومي : « لو كان الجبر ما توجه الأمر والنهي إلى الإنسان ، وما كلف الإنسان بالشرائع والأحكام ، فهل سمع إنسان يأمر حجرا وينهاه؟!

ويقول :« إن القرآن كله أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، ولم نسمع عاقلا يأمر الرخام ، أو ينهي الحديد» !

« إن الإنسان مفطور على عقيدة الاختيار ، وهو يمثل هذه العقيدة ، ويطبقها في حياته اليومية ، ويقرر بعمله وسلوكه الاختيار ، وينكر الجبر فلا يعاقب الجماد ، ولا يغضب على الحجر والخشب والسيل والنار والريح ، مهما لحقه الأذى والعنت من هذه الأشياء» :

ويتساءل جلال الدين :« إذا سقط عليك جذع من السقف ، وجرحك جرحا شديدا ، وأدماك وآلمك ، فهل يثور غضبك على هذا الجذع؟ وهل تعاقبه وتقول له : لماذا كسرت يدي وأدميت رأسي؟ كذلك إذا جاء سيل أو فيضان فذهب بأثاثك ومتاعك أو هاجت الريح وطارت بعمامتك ، اشتغلت غضبا على السيل أو الريح وتصديت لهما بالعتاب أو العقاب؟!

لكن إذا تعرض إنسان لإهانتك ثرت عليه وعاقبته عقابا شديدا ، فدل ذلك على أنك مميز بين المجبور والمختار ، وتعتقد أن الإنسان صاحب العمل ، وتعتقد أن الإنسان صاحب اختيار وإرادة فتحاسبه ، وتعاتبه وتعاقبه ، وتشكوه وتلومه ، ولا تقبل له عذرا ، لأنه مخير ليس بمجبور».

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك ، بل يقرر أن الحيوان يعرف ذلك ، ويميز بين المجبور والمختار ، وتهديه إلى ذلك فطرته ، فإذا ضربت كلبا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك ، ولم يقبل إلى الحجر وينتقم منه!

كذلك إذا ضرب السائق بعيرا ، وهاج البعير ، لم يثر على الهراوة التي ضرب بها ، إنما يثور على الجمال المسرف في ضربه ، فعار عليك أيها الإنسان العاقل أن تنسب الجبر إلى الإنسان ، ويفوقك الحيوان غير العاقل في فهم هذه الحقيقة وإدراكها!! [1]

* * *

---

(١) نقلا عن كتاب (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) لأبي الحسن الندوي . فصل (جلال الدين الرومي) .

المنهج الواجب اتباعه
إزاء المفْرِطين والمفَرِّطين

والمنهج السليم الذي يجب على المنصف اتباعه إزاء هذه الفرق المختلفة في الإثبات والنفي ، المتفاوتة في الإفراط والتفريط ، هو ما وضحه المحقق السلفي ابن القيم في كتابه (شفاء العليل) [1] حيث قال :

«وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب ، وبعضهم أقرب إلى الصواب ، وبعضهم أقرب إلى الخطأ ، وأدلة كل منهم وحجته ، إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى ، لا على إبطال ما أصابوا فيه».«فكل دليل صحيح للجبرية ، إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته ، وأنه لا خالق غيره ، وأنه على شيء قدير ، ولا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات ، وهذا حق ، ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادرا مريدا فاعلا بمشيئته وقدرته ، وأنه هو الفاعل حقيقة ، وأفعاله قائمة ، وأنها فعل له ، لا لله ، وأنها قائمة به ، لا بالله .

«وكل دليل صحيح يقيمه القدرية ، فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم ، واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم ، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين ، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادرا على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين» .

فأدلة الجبرية متضافرة صحيحة على من نفي قدرة الرب سبحانه على كل شيء من الأعيان والأفعال ، ونفي عموم مشيئته وخلقه لكل موجود ، وأثبت في الوجود شيئا بدون مشيئته وخلقه».

---

(١) ص ٥١ ، ٥٢ .

« وأدلة القدرية متضافرة صحيحة على من نفي فعل العبد ، وقدرته ومشيئته واختياره ، وقال : إنه ليس بفاعل شيئا ، والله يعاقبه على ما لم يفعله ، ولا له قدرة عليه ، بل مضطر إليه مجبور عليه» .

« وأهل السنة ، وحزب الرسول ، وعسكر الإيمان ، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه ، وهم برآء من باطلهم ، فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض ، والقول به ، ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه ، ونفي باطل كل طائفة من الطوائف ، وكسره معاداة أهله من هذا الوجه» .

« فهم حكام بين الطوائف ، لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق ، ولا يردون حق طائفة من الطوائف ، ولا يقابلون بدعة ببدعة ، ولا يردون باطلا بباطل ، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على ألا يعدلوا فيهم ، بل يقولون فيهم الحق ، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل ، والله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف فقال : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (الشورى:١٥) فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه ، وأن يستقيم في نفسه كما أمره ، وألا يتبع هوى أحد من الفرق ، وأن يؤمن بالحق جميعه ، لا يؤمن ببعضه دون بعض ، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات ، وأنت إذا تأملت هذه الآية ، وجدت أهل الكلام الباطل ، وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظا ، وأقلهم نصيبا ، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها» .

* * *

القدر والأسباب

إذا كان القدر معناه : أن الله علم الأشياء وأرادها قبل وقوعها فهى ستقع لا محالة ، وفق علمه وإرادته ، وإلا تخلف علمه ، وانتقضت إرادته سبحانه . فهل يعنى ذلك إطراح الأسباب ، ونبذ الوسائل الموصلة إلى الغايات والنتائج ، فإن ما قدره الله كائن نافذ ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا معارض لقدره .

فإذا قدر للمريض أن يشفى ، وأن تسري في أوصاله العافية ، فإنه لابد سيتحقق له الشفاء ، سواء عرض على الطبيب أم لا ، وسواء تناول الدواء أم لا .

وإذا قدر للمحارب أن ينتصر ، فإن النصر سيأتيه لا محالة ، وإن لم يعدّ العدة ورباط الخيل ، وإن قدر له الخذلان والهزيمة ، جاءته تجرر أذيالها ، وإن اتخذ العدد والعتاد ، وجهز السلاح والزاد !

هكذا يتوهم بعض الناس ، فيخيل إليه أن الإيمان بالقدر ينافي اتخاذ الأسباب ما دامت النتائج مقدرة ومفروغا منها من قديم .

وخطأ هؤلاء قد جاء لسوء فهمهم لمعنى القدر ؛ فقد ظنوا أن الله يقدر المسببات مفصولة عن أسبابها ، والنتائج معزولة عن مقدماتها ، والآثار بغير مؤثراتها وهو خطأ بين .

فإن الله يقدر المسبب والسبب معا ، والنتيجة والمقدمة جميعا ، ذلك أن القدر يتعلق بكل حادث في العالم ، لا يغيب عنه شيء ، ويتعلق بالأشياء على ما تكون عليه . فإذا قدر الله لمريض أن يشفى ، لم يقدر هذه النتيجة وحدها ، بل يقدر أنه يشرب دواء خاصا ، أو يحتمي من طعام معين ، أو يسلك سلوكا ما ، يترتب عليه ـ حسب سنة الله ـ أن يبرأ من مرضه ، ويشفى من علته .

وكذلك إذا قدر الله لمريض أن يموت ، أو لسليم أن يمرض ، فإن الله يقدر الأمور مقرونة بأسبابها ، فإنها كلها داخلة في القدر .

ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا الخطأ أو الوهم في معنى القدر ، قد وقع فيه بعض الناس منذ عهد الرسول والصحابة ، ولكنهم وجدوا من يصحح لهم الفهم ويطرد الوهم ، ويردهم إلى الصراط ، فقد قيل للنبى ﷺ : «يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقي بها ، وتقاة نتقي بها ، هل ترد من قدر الله شيئا؟ «فقال : » «هي من قدر الله»[١].

فالمسببات من قدر الله ، وأسبابها من قدر الله .

الآثار والنتائج من قدر الله ، والمؤثرات ، والمقدمات الموصلة إليها من قدر الله أيضا .

ولما كان عمر رضي الله عنه في طريقه إلى الشام ، ثم علم بوقوع الطاعون فيه ، استشار المسلمين ، ثم قرر الرجوع إلى المدينة بمن معه من الصحابة ، حتى لا يتعرضوا لوباء الطاعون ، فقال أبو عبيدة : « أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين؟» .

فقال عمر : «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟! نعم ، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله» .

كره عمر لمثل أبي عبيدة ـ في جلالته وسابقته ـ أن يفوته مثل هذا المعنى في فهم القدر ، فبين له أن القدر محيط بكل شيء ، فالذي يفرون منه قدر الله ، والذي يفرون إليه قدر الله ، فالطاعون قدر من الله ، والوقاية منه قدر من الله كذلك .

ثم ضرب عمر له مثلا فقال :

«أرأيت إن كانت لك إبل ، وكانت أمامك أرض خصبة ، وأرض جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فقال أبو عبيدة : «بلى» قال عمر :«فذلك كذلك»[٢].

إن قدر الله حق ، وقدر الله نافذ ، ولكنه يتفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون ، ومن خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها ، وليستقيم عليها أمر

---

(١) رواه الترمذي في الطب (٢٠٦٦) عن أبي خزامة عن أبيه ، وقال: حديث حسن ، وفي بعض النسخ حسن صحيح ! وذكره في القدر(٢١٤٩) . ورواه ابن ماجه في الطب (٣٤٣٧) كما رواه أحمد في مسنده (٤٢١/٣) وفي مسنده راو مجهول ، وباقى رواته ثقات ، وروى الحاكم نحوه عن حكيم بن حزام (١٩٩/٤٠) وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري .

الوجود ونظام التكليف ، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط .

● القدر والعمل الصالح

ومن فروع الوهم السابق ما دخل على أذهان كثير من الناس : أن الإيمان بالقدر ينافي السعي في الطاعات وعمل الصالحات ، فما علمه الله في الأزل ، وسبقت به المقادير وخطه القلم في الكتاب المكنون ، لا بد أن يحدث ولا مفر من وقوعه وإلا انقلب العلم جهلا .

فإذا كان في علم الله أن زيدا من الناس ، من أهل الشقاوة ومن أصحاب النار فلن يستحيل هذا الشقي إلى سعيد ، ويصبح يوما من أهل الجنة .

وإذا كان في سابق العلم الإلهي أن عمرا من الخلق من أهل السعادة ومن أهل الجنة ، فهو لا محالة من أهلها ، ولن يصير يوما من أهل الشقاوة ، ومن أهل النار.

ولهذا قيل : السعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد لا يشقى كما أن الشقي لا يسعد ، فلا فائدة إذن من العمل وتعب النفس والقدر نافذ والمكتوب واقع لا محالة .

وهذا يدل على جهل شديد ، وضلال بعيد ، من وجهين :

أولا : أن علم الله سبحانه يتعلق بالأشياء على ما هي عليه في الواقع ، وكذلك يكتبها ويقدرها على ما هي عليه ، فإن العلم يطابق المعلوم ، وهو سبحانه قد علم وقدر أن المكونات تكون بأسبابها ، لأن ذلك هو الواقع ، فمن زعم أن الله يعلم أو يقدر النتائج بدون مقدماتها ، والمسببات بدون أسبابها ، فقد قال على الله الباطل .

إن الله يعلم ويكتب في لوحه المحفوظ : أن فلانا يؤمن ويعمل صالحا فيدخل الجنة مع السعداء ، وأن فلانا يعصي ويفسق فيدخل النار مع الأشقياء ، كما علم وكتب : أن فلانا يتزوج فلانة ويدخل بها فيأتيه ولد ، وأن فلانا يأكل فيشبع ، ويشرب فيرتوي ، وأن آخر يغرس شجرة فيجتني منها ثمرة .

فمن قال من الناس : إن كان قد سبق لي أني من أهل الجنة ، فأنا أدخلها ولو بلا عمل ، وكان هذا مناقضا لما علمه الله وقدره .

ومثال ذلك من يقول : إن كان الله قد قضى لى بولد ، فسيأتينى ولو لم أتزوج وأدخل بالمرأة التي قدر الله أن تكون أم الولد .

فقائل ذلك لا ريب أنه جاهل أحمق ، فإن الله إذا كان قدر له أن يرزق بولد ، فقد قدره بسببه فانتظار المسبب المقدر المكتوب ، بدون السبب المقدر المكتوب معه ، لا يكون إلا حمقا وضلالا بعيدا .

ثانيا : أن الشيء إذا علم وكتب ، وأخبر عنه بذلك ، لا يكفى ذلك في وجوده ، ولا يوجب الاستغناء عما به يكون من الأسباب والعلل التي لا يتم إلا بها ، كالفاعل وقدرته ومشيئته وآلاته .

ذلك أن العلم ليس سببا موجبا بنفسه لوجود المعلوم ، بل هو مطابق له على ما هو عليه ، ولا يكسبه صفة ، ولا يكتسب منه صفة .

والعلم بالمستقبل والخبر عنه كالعلم بالماضي والخبر عنه ، وذلك كعلمنا بالأمور التي كانت قبلنا وإخبارنا عنها ، كالموجودات التي كانت قبل وجودنا ، كعلمنا بالسماوات والأرض . بل كعلمنا بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، فإن هذا العلم ليس له تأثير في وجود المعلوم بالإجماع بل بالضرورة .

وبهذا نتبين : أن القول بأن السعيد لا يشقى ، والشقي لا يسعد كلام صحيح ، لكن من قدّر الله سعادته ، يكون سعيدا بالأعمال التي جعلها الله أسباب السعادة وربطها بها ، والشقي لا يكون شقيا إلا بالأعمال التي جعلها الله من أسباب الشقاوة ومن جملتها الاتكال على القدر السابق ، وترك العمل الواجب .

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :« كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة فنكس ، فجعل ينكت مخصرته ، ثم قال : « ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة ، فسيصير إلى أهل الشقاوة . قال : « أما أهل السعادة ، فييسّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسّرون إلى

عمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل:٥-١٠).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : « قيل يا رسول الله ، أعلِم أهل الجنة من أهل النار؟ . فقال : « نعم » ، قيل : ففيم يعمل العاملون؟. فقال : « كل ميسر لما خلق له » . متفق عليه .

وفي بعض روايات البخاري : « كل يعمل لما خلق له ، أو لما يسر له». فدلت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر سابق ، لا يمنع العمل ، ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجد والاجتهاد ؛ ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : « ما أنا أشد اجتهادا مني الآن » : وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة رضي الله عنهم ، فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق ، وجريانه على الخلق بالأسباب ، فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ، ومكن منه ، وهيئ له ، فإذا عمل بالسبب ، أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب .

إن المكتوب في القدم : هو سعادة السعيد بما يسر له من العمل الصالح وشقاوة الشقي بما يسر له من العمل السيئ ليس المكتوب أحدهما دون الآخر .

فما أمر به المكلف من واجبات ، أو ما نهي عنه من محظورات ، هو من الأسباب التي ينال بها السعادة ، والمقدر المكتوب هو مجموع السعادة والعمل الذي تنال به السعادة .

وإذا ترك المكلف ما أمر به ، متكلا على الكتاب السابق ، كان ذلك من المكتوب المقدر الذي يصير به شقيا ، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول : أنا لا آكل ولا أشرب ، فإن الله قدر لي الشبع والري ، فسأشبع وأرتوي ، أو يقول : لا أتزوج ولا أقرب النساء ، فإن قدر لي ولد فسيكون !

● القدر والأرزاق

ومن مضامين القدر التي حدث فيها الخلط وسوء الفهم : ما يتعلق بـ(الأرزاق) .

والمراد بالرزق : حظ الإنسان من طيبات الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمال والزوجة والولد ، وسائر ما يحرص الناس عليه من متاع الحياة فكلها داخل في مفهوم (الرزق) .

وهذا الرزق مقدر مقسوم للإنسان من الله تعالى ، فمنهم من قدر له السعة في رزقه ، ومن قدر عليه الضيق ، ومنهم الوسط . ورازق الجميع هو الله تعالى ، كما قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٨) .

وهو الذي تكفل بتهيئة الرزق للجميع ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦).

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾
(العنكبوت:٦٠)

وكثير من الناس يفهمون من قولنا : أن الرزق مقدر مقسوم من الله تعالى : أنه لا فائدة في السعي لطلب الرزق ، وأن من قدر الله له الغنى سيغتني وإن قعد في بيته ، ومن قدر عليه الفقر سيفتقر ، وإن كان من أذكى الناس وأنشطهم ، وأكثرهم سعيا وكدحا .

فالحق أن الله تعالى قدر الرزق مقرونا بسببه ، فإن الأسباب مقدرة ، كما أن مسبباتها مقدرة . فالله تعالى قدر أن فلانا يعمل عقله وذكاءه ، ويجهد جسمه وأعضاءه في الكد والاجتهاد في طلب المعايشة ، فيوسع عليه في الرزق ، وآخر يخلد إلى الكسل ، ويرضى بالدون ، وبالعيش الهون فيضيق عليه في الرزق .

ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ (الملك:١٥) ومعنى الآية : أن من اجتهد وسعى ومشي في مناكب الأرض والتمس الرزق في خباياها ، أكل من رزق الله ، ومن تقاعس ولم يمش في مناكب الأرض ، لم يستحق أن يأكل من رزق الله تعالى .

وضمان الله تعالى لرزق الأحياء ، وأن عليه رزق كل دابة في الأرض : يعني أنه هيأ لها أسباب الرزق في هذه الأرض برها وبحرها . فالله تعالى حين خلق الأرض ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ (فصلت:١٠).

وقبل أن يخلق الله تعالى البشر ، ومكنهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠) ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ (الأعراف:١١) فدل القرآن على أن تهيئة المعايش والأرزاق للناس قد تمت قبل أن يخلقهم .

ولكن سنة الله تعالى : ألا ينال الرزق إلا بسعي وعمل ، وهذا ما أمر به الشرع أيضا . فسنن الله في خلقه ، وأوامره في شرعه ، توجب على الإنسان أن يعمل لكسب رزقه . فمن قعد عن الكسب فقد خالف السنن الكونية ، والأحكام الشرعية معا .

وعندما رأى عمر رضي الله عنه جماعة يقعدون في المسجد بعد صلاة الجمعة وقد انتشرت الناس ، سألهم : من أنتم ؟ قالوا : متوكلون ! قال : بل أنتم متأكلون ! لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ! وإنما يرزق الله تعالى بعضهم من بعض . أما قرأتم قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة:١٠) .

هذا هو منطق الصحابة في فهم الرزق . السعي والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ، وليس القعود والتواكل بدعوى التوكل ، والاعتماد على أن الرزق مقسوم ، وما كان لك سوف يأتيك . فهذه دعاوى غير مسلمة على علتها . ولذا نرفض قول الشاعر :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون !
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين!

فإن ما قاله هذا الشاعر هو الجنون ، فإن الشارع قد أمرنا أن نسعى لكسب أرزاقنا ، زارعين وصانعين ومحترفين ، وصائدين وتاجرين ، وعاملين في شتى مجالات الحياة ، متعبدين لله تعالى بذلك ، حتى سمي الله طلب الرزق : الابتغاء من فضل الله ، وهي تسمية توحي بالرضا والقبول ، وتحدث القرآن عن عُمَّار المساجد ، فقال : ﴿ رِجَالٌ

﴿ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ (النور:٣٧) فليسوا دراويش متبطلين ، إنما هم (رجال أعمال) كما نقول في عصرنا .

واعتبار الشاعر السعي للرزق جنونًا لأن الجنين يرزق في غشاوته : مردود عليه ، لأن الجنين لا يملك أن يسعى ، فكان من سنة الله أن يرزق في غشاوته . فأين الإنسان المكلف من الجنين في بطن أمه؟

صحيح أن من الناس الأذكياء ، من يكدح ويجتهد ويصل الليل بالنهار ، ولا يناله من الرزق إلا القليل ، ومنهم من يبذل من الجهد القليل ويأتيه الرزق الكثير ، ومنهم من يأتيه الرزق بغير جهد ولا كلل ، وهذا يكون لعدة أسباب :

١- أن يكون هناك خلل في الأوضاع وعوج في الأنظمة ، فيأتى توزيع الثروة غير عادل ، وهذا لا يجوز أن يستمر ، ويجب أن يصلح ويعدل .

٢- أو تكون الأوضاع الطبيعة غير متكافئة ، فمن يعمل في بيئة خصبة مساعدة ، غير من يعمل في بيئة قاحلة تعوقه ، ولا يتوقع أن تكون فرصة من يعمل في أمريكا مثل من يعمل في صحراء أفريقيا .

٣- أو تكون هناك أقدار لا يعرف الإنسان سرها ، يسميها بعض الناس الحظ أو البخت ، أو الطالع أو نحو ذلك ، ويسميها المؤمنون (حكم القدر) . فقد نجد تاجرين متجاورين يبيعان سلعة واحدة بأسعار واحدة ، وأحدهما لا يكاد يدخل عليه أحد ، والآخر على محله زحام دائم .

ونجد من الناس عاملا متقنا ، وصانعا متقنا ، ولكنه لاحظّ له ، وهو الذي يقول عنه المثل العامي : سبع صنائع ، والبخت ضائع !

وآخر ليس له هذه الموهبة ، ولكنه سعيد الحظ ، لا يكاد يضع يدة في شيء إلا ربح ، وتنهال عليه المكاسب دون أن يدبر لها أمرا .

وقد يرزق الله الإنسان من فضله . الإنسان بلا جهد منه ، كمريم عليها السلام ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران:٣٧).

هنا ينفع الإيمان بما قدر الله ، والرضا بما قسم ، ففيه راحة وسكينة للنفس ، كما جاء في الحديث : (ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس)[1] وهذا هو (غنى النفس) الذي جاء في الحديث الصحيح : « وليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس »[2].

ولا ريب أن التفاضل في الأرزاق من سنن الله في الوجود كما قال تعالى :﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ (النحل: ٧١).

ولكن مما لا ريب فيه أيضا : أن بعض هذا التفاضل من ظلم الناس بعضهم لبعض ، ومن سوء توزيع الثروة بين أهل الوطن الواحد ، فلا ينبغي أن يحمل هذا على كاهل القدر ، وأن يؤدي هذا إلى التشكيك في عدل الله تعالى وحكمته في خلقه حتى قال بعضهم :

كم عـــالم عـــالم تلقـــاه مفتقـــرا وجاهل جاهـــل تلقـــاه مرزوقـــا
هذا الذي ترك الألبـــاب حـــائرة وصير العـــالم النحريـــر زنـــديقا

وقد علق ذلك الإمام الراغب الأصفهاني في باب سبب إخفاق العاقل ، وإنجاح الجاهل فقال : « الحكمة تقتضي أن يكون العاقل في أكثر الأحوال مقلا ، وذلك أنه لا يأخذ المال إلا كما يجب ، من الوجه الذي يجب ، وفي الوقت الذي يجب ، ثم إذا أخذه وتناوله لم يدخره عن مكرمة تعن له .

والجاهل أسهل عليه الجمع من حيث لا يبالي فيما يتناوله ، بارتكاب محظور ، واستباحة محجور . واستنزال الناس عما في أيديهم بالمكر ، ومساعدتهم على ارتكاب الشر ، طمعا في نفعهم له . وكثيرا ما ترى من هم في جملة الموصوفين بقوله تعالى : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ (البقرة: ٢٠٠) وذلك لحرصهم على ارتكاب المقابح ، ولجهلهم بما يقيض الله لعباده من المصالح .

---

(١) رواه أحمد والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في تخريج كتابنا (مشكلة الفقر) وفي صحيح الجامع الصغير برقم (١٠٠) .

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة ، كما في اللؤلؤ والمرجان (٦٢٤) .

وقول الشاعر :

هذا الذى ترك الألبـــاب حـــائرة وصير العـــالم النحريـــر زنـــديقا

فالذي يصير بذلك زنديقا فبأن يسمي الجاهل الشرير أولى من أن يسمي العالم النحرير .[1]

● القدر والآجال

وكما قدر الله تعالى الأرزاق ، قدر الآجال والأعمار ، فالعمر محدود ومعلوم سيق بتحديده القدر ، فكل امرئ معلوم أنه سيعيش كذا وكذا سنة ، عشريـن أو سبعـين أو مائة أو أكثر ، وسجل ذلك في كتاب عند الله وإذا جاء أجله لا يؤخر ولو لحظة واحدة . وهذا ما نطق به القرآن الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا** ﴾ (المنافقون: ١١).

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾

(الأعراف: ٣٤)

والمراد بالساعة هنا : اللحظة من الزمن ، وليست الساعة الفلكية التي هي ستون دقيقة .

ولما قتل في غزوة أحد من المسلمين من قتل ، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلونها بألسنتهم ، ويلومون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين ، وإن إخوانهم الذين قتلوا ، لو كانوا عندهم ، ولم يخرجوا للقتال ، ما ماتوا وما قتلوا ، فرد عليهم القرآن أبلغ الرد ، منددا بهم وبموقفهم ، فقال : ﴿ **وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ﴾

(آل عمران: ١٥٤)

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة بتحقيق دكتور أبي الزبير العجمي ، نشر دار الوفاء بمصر .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (فاطر:١١) والمعمر : من يعيش عمرا طويلا في العادة ، ومن ينقص من عمره : من يعيش عمرا قصيرا ، قدره بعضهم بما قبل الستين . الضمير في (عمره) عائد على الجنس لا على العين ، لأن الطويل العمر في الكتاب ، وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، قال ابن جرير : وهذا كقولهم : عندي ثوب ونصفه ، أي : ونصف ثوب آخر . وقولهم لا يثيب الله مكلفا ولا يعاقبه إلا بحق ، والمعاقب غير المثاب ، ولكن المراد : الجنس .

وجاء عن ابن عباس في تفسير الآية : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة ، إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له . فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه . وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ، ببالغ العمر (أي الطويل) ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾(فاطر:١١) يقول : كل ذلك في كتاب عنده .

وبعضهم فسر ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ (فاطر:١١) بمعنى ذهاب العمر قليلا قليلا : سنة بعد سنة ، وشهرا بعد شهر ، وجمعة بعد جمة ، ويوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله في كتابه [١] .

ومنهم من فسر نقص العمر بقلة البركة فيه ، والزيادة في العمر ببقاء البركة فيه ، كما قال ابن عطاء الله : رب عمر قصرت آماده ، واتسعت إمداده . وجاء في ذلك الحديث الشريف : « من سره أن يبسط له في رزقه ، أو ينسأ في أثره (أى في أجله) فليصل رحمه» متفق عليه[٢] .

ونعود هنا إلى بيان معنى تقدير الآجال ، قصيرة أو طويلة ، لنبين أنها مقدرة مع أسبابها ، وليست منفصلة عنها ، كما يتوهم عوام الناس .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج ٥٥٠/٢ طبعة عيسى الحلبي .
(٢) متفق عليه عن أنس بن مالك ، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٥٧) .

فمن قدر له طول الأجل : قدر له أنه سيتهيأ له من الأسباب ، من توافر الغذاء الصحي ، وطيب الهواء النقي ، وممارسة العمل البدني أو الرياضي ، والابتعاد عما يضر بالبدن تناوله ، من المسكرات أو المخدرات أو الأشياء الضارة كالتدخين ، أو طول السهر ، أو ارتكاب المحرمات . . فهو بهذه الأسباب يطول عمره ، وهذه الأسباب مقدرة كمسبباتها .

ومن قدر له قصر العمر ، قدر له : إنه سيبتلى بسوء التغذية أو سوء التهوية ، أو الإصابة بعدوى ، أو تناول ما يضره ويؤذيه ، أو يصيبه حادث في طريق ، أو يموت في كارثة عامة كالزلزال ، أو يقتله قاتل عمدا أو خطأ ، فيموت وينتهي أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها . ولكنه مات في وقته المقدر له ، وفي (أجله المسمى) عند الله .

فلا انفصال في الأقدار بين المسببات وأسبابها بحال ، وخطأ الناس هنا دائما يتمثل في تصورهم تقدير المسببات كالموت والقتل والحوادث والأمراض بمعزل عن الأسباب ، والنبي ﷺ قد فصل في ذلك حين سئل عن الأدوية : هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال : « هي من قدر الله » فما أحكمه وأبلغه وأوجزه من جواب !

* * *

الاحتجاج على المعاصي بالقدر

بعض الناس يحتجون بالقدر على معاصيهم وسيئات أعمالهم ، ويحملون عليه وزر تفريطهم في الحقوق ، أو انتهاكهم للمحرمات ، ويقولون : هذا مكتوب علينا ، سبق به القدر ، وجرى به القلم ، ولا مفر مما قدر الله وكتب ، ولو شاء ما فعلناه .

ولهؤلاء سلف من المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة أخرى ، وحرّموا ما أحل الله افتراء على الله ، فلما دعوا إلى التوحيد والحق ، احتجوا بأن ما هم عليه من شرك وأباطيل ، إنما هو بمشيئة الله تعالى .

وقد ذكر القرآن عنهم ذلك في عدة مواضع ، منكرا عليهم ، ورادا لقولهم ، وأوضح هذه المواضع ما جاء في سورة الأنعام حيث قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١٤٨).

احتج أعداء الله في هذه الآية بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه ، وأنه لولا رضاه بشركهم ، وتحريمهم ومحبته له ، ما أقرهم عليه ، ولا شاءه منهم ، وعارضوا بذلك شرعه ، ودعوة رسله . قالوا : كيف يأمرنا الله بشيء ، قد شاء منا خلافه ، وكيف يكره منا شيئا ، قد شاء وقوعه ، ولو كرهه لم يمكنا منه ، ولحال بيننا وبينه . هذا مضمون احتجاجهم ، فكيف رد القرآن عليهم؟ .

لقد كذبهم فيما ادعوا ، وأخبر أن هذا تكذيب منهم لرسله ، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويمقته ، وأنه لولا بغضه ومقته ، لما أذاق المشركين بالله عذابه ، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه .

ثم طالبهم بالعلم ـ أو الدليل ـ على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه ، وأنه يحبه ، ويرضى به ، ومجرد إقراره لهم قدرا ، لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء . وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوبا له ومرضيا .

ثم أخبر سبحانه : أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن ، وهو أكذب الحديث ، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب .

وجوه الفساد في الاحتجاج بالقدر على المعاصي

والاحتجاج بالقدر على المعاصي والآثام خطأ وضلالة من وجوه :

١- أن هذا القول «الاحتجاج بالقدر» يلزم منه أن يستوي أولياء الله وأعداء الله ، ولا يتميز الأبرار من الفجار ، ولا أهل الجنة من أهل النار ، فإن هؤلاء جميعا قد كتب الله مقاديرهم ، قبل أن يخلقهم ، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح ، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان .

قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (القلم:٣٥،٣٦) ، ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٨) ، ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (الحشر:٢٠) .

٢- أن سبق القدر ـ لو كان عذرا للعصاة المذنبين ـ لكانت الأمم الظالمة التي أهلكها الله ، ودمر عليها ، وأنزل بها نقمته ، مثل عاد وثمود ، وقوم نوح ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وفرعون ، وهامان ، وقارون ، وغيرهم من الكفرة المفسدين ـ معذورين فيما صنعوا ، مظلومين بما عوقبوا . أي أن الله تعالى قد ظلمهم حين أخذهم بعقابه ، على ذنوب هم فيها معذورون ، مع أن الله سبحانه يقول : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ (هود:١٠١) ويقول بعد أن تحدث عن بعض الأقوام وكفرهم وإعراضهم : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٠).

وإذن يكون القول بأن هؤلاء المهلكين معذورين ، من الكفر البواح الذي اتفق عليه أرباب الديانات جميعا .

٣- أن القائلين بهذا القول من الاحتجاج بالقدر ، متناقضون تناقضا صريحا ؛ فإن القدر ـ لو كان حجة ـ قول لا يقره أحد ، ولا يتعاشر عليه اثنان ، ولا تستقيم عليه جماعة ، ولا تقوم به مصلحة في دين أو دنيا ، فلا يلام مقصر ، ولا يعاقب مجرم ، ولا يحاسب ظالم ، ولا يجاهد عدو ، ولا يقاوم باطل ،

ولا يقام حد ، ولا يؤمر بمعروف ، ولا ينهى عن منكر ، ومقتضى هذا فساد في الحياة ، وهلاك المجتمع كله .

ويلزم الذي يحتج بالقدر ويتعلل به ، ألا ينكر على من يظلمه ويعتدي عليه ، فيهضم حقه ، أو يسلب ماله ، أو يهتك عرضه ، أو يستحل دمه ، وكذلك كل من يهلك الحرث والنسل ، ويسعى في الأرض فسادا .

ولا ريب أن هؤلاء ينكرون على من يظلمهم أو يعتدي عليهم ، ولا يزال أحدهم يلوم زيدا ، ويبغض عمرا ، ويشكو بكرا ، حتى إن الذي ينكر عليهم مقالتهم هذه ، يبغضونه ويعادونه ، ولا يعتذرون له بما اعتذروا لأنفسهم .

وهذا كله دليل على كذبهم في دعواهم ، وتناقضهم في قولهم ، والتناقض دليل الفساد والبطلان .

فتبين بهذا أن قولهم فاسد في العقل ، كما أنه ضلال في الشرع .

٤- أن تعلل المذنب العاصي بالقدر جهل ، لأنه تعلل بما لا يجوز التعلل به ، وهو مع ذلك تعلل لا ينفع صاحبه ، بل يضره ، فإن الاعتلال بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه أيضا . وقد روي أن لصا أحضر بين يدي عمر ، فسأله : لم سرقت؟ فقال : قدر الله ذلك . فقال عمر : اضربوه سوطا ، ثم اقطعوا يده ، فقيل له : لم؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله !

وإنما اعتل بالقدر إبليس حيث قال بعد أن عصى واستكبر وطرد : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الحجر:٣٩) فنسب الإغواء إلى الله ، لم يذكر أنه عقوبة على استكباره وكفره . وأما آدم فقال : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول ما قال آدم عليه السلام ، ومن كتبت عليه شقوته اعتل بعلة إبليس ، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار .

فالمسلم يؤمن بالقدر ولا يعتذر به عن تقصيره وتعديه ، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول .

وقد شبه شيخ الإسلام ابن تيمية من يتعلل بالقدر عند وقوع الذنوب ، برجل طار إلى داره شرارة نار ، فقال له العقلاء : أطفئها لئلا تحرق المنزل ، فأخذ يقول : من

أين كانت هذه الشرارة؟ هذه ريح ألقتها ، هذه فعلها غيري ، أنا لا ذنب لي في هذه النار . فما زال يتعلل بهذا العلل ، حتى استعرت الشرارة وانتشرت ، وتفاقم خطرها ، فأحرقت الدار وما فيها ، وأكلت الأخضر واليابس . هذه حال من شرع يحمّل الذنوب على المقادير ، ولا يردها بالاستغفار والمعاذير ، بل حاله أسوأ من صاحب الشرارة ، فربما لم يكن له يد فيها ولا تقصير ، بخلاف المذنب ، فإنه مسئول عن ذنبه .

● هل احتج آدم على الذنب ؟

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :«احتج آدم وموسى . فقال موسى : يا آدم ، أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده؟ أتلومني على أمر قدّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي ﷺ : « فحج آدمُ موسى ، فحج آدمُ موسى ، فحج آدمُ موسى» ومعنى حجه : غلبه . وفي رواية : «احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى . فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ! قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقرّبك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ .

قال موسى : بأربعين عاما .

قال آدم : هل وجدت فيها « وعصى آدم ربه فغوى »؟

قال : نعم .

قال : أفتلومني على أن عملت عملا كتب الله عليَّ أن أعمله ، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ .

قال رسول الله ﷺ : « فحج آدمُ موسى » .

وفي لفظ : «أن موسى قال لآدم : أنت الذى أخرجَتْنا خطيئتك من الجنة». وفي لفظ آخر : « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة» .

لقد تسرع بعض الناس فأنكروا هذا الحديث حين ظنوه سندا للاحتجاج على الذنوب بالقدر ، وتمحل له آخرون تأويلات غير مقبولة ، واتخذه آخرون تكأة يتوكؤون عليها ، ويستندون إليها إذا وقعوا في الذنوب والآثام .

والحديث لا مطعن في صحته ، فقد رواه الشيخان من حديث أبى هريرة ، وروي في السنن بإسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه .

ومعنى الحديث واضح ، لا يحتاج إلى تكذيب ولا تمحل ، ولا مستند فيه للمحتجين على الذنوب بالأقدار . فإن موسى حين لام آدم لم يلمه على ما فعل لأجل حق الله في الذنب ، وإنما لامه لأجل ما حدث لذريته من المتاعب والآلام ؛ بسبب أكله من الشجرة وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، فكأن موسى أراد بمحاجته : أن يحمل أباه آدم مصيبة البشرية كلها وعنادها ، بسبب اللقمة التي أكلها من الشجرة ، لهذا كان قوله : «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» ولم يقل له : لماذا عصيت؟ أو لماذا أكلت من الشجرة التي نهيت عنها؟ .

وآدم على حق حين دافع عن نفسه فحج موسى وخصمه ، بأن حياة البشر على الأرض وتكليفهم فيها ، وآلامهم بها ، قدر سبق من الله قبل وجود آدم .

والمؤمن مأمور عند نزول المصائب أن يرجع إلى القدر ، ويحتمي به ، فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويسلم للمقدور ، ولهذا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند حلول ما نكره : «قدر الله ، وما شاء فعل»[1] .

فمن الخطأ الواضح ، بل من الضلال المبين ، أن يعتقد أن موسى كليم الله إنما لام آدم على ذنبه ومعصيته ، وأن أبا البشر آدم اعتذر عن وقوع المعصية بالقدر السابق .

ذلك أن آدم كان قد تاب من ذنبه ، وتقبل الله توبته : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢٢) وموسى عليه السلام ومن هو دون موسى منزلة ، يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة ، لا يبقى وجه للملامة على الذنب ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ، وسيأتي بتمامه في (ثمار الإيمان بالقدر) .

وآدم أعلم بالله جل شأنه من أن يحتج بالقدر على الذنب ، كيف وقد اعترف به ، واستغفر منه بقوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣).

وموسى أعلم بالله من أن يقبل هذه الحجة أو هذا الاعتذار .

فإن هذا لو كان عذرا لعذر به إبليس عدو آدم ، وعذر به فرعون عدو موسى ، وعذر به كل عدو لله ، ولي للشيطان ، وبطل بذلك أمر الله ونهيه ، وانهار الدين كله من أساسه .

هذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية .

ولتلميذه الإمام ابن القيم جواب آخر : وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ، ويضر في موضع .

فينفع إذا احتج به بعد وقوعه ، والتوبة منه ، وترك معاودته ـ كما فعل آدم ـ فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ، ومعرفة أسماء الرب وصفاته ، وذكرها ما ينفع الذاكر والسامع ، لأنه لا يدفع بالقدر أمرا ولا نهيا ، ولا يبطل به شريعة ، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد ، والبراءة من الحول والقوة .

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل : بأن يرتكب فعلا محرما ، أو يترك واجبا ، فيلومه عليه لائم ، فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ، فيبطل بالاحتجاج به حقا ، ويرتكب باطلا . كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله بقولهم : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ (الأنعام:١٤٨) .

فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه ، وندم وعزم كل العزم على ألا يعود ، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال : كان ما كان بقدر الله .

قال ابن القيم : (ونكتة المسألة : أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر ، وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل) .

● من هو المعذور حقا ؟

إن سبق القدر بالعمل ، أو المعصية والمنكر ، لا يجعل الإنسان معذورا ، لأن القدر لا ينفي ولا يعارض وجود العلم بالعمل ، والمشيئة له ، والقدرة عليه .

إنما المعذور حقا من فقد العلم بالعمل ، أو الإرادة له ، أو القدرة عليه . وهذا هو المعذور عند الله .

فمن فقد العلم بأن لم يكن أهلا للمعرفة كالصبي والمجنون ، أو لم تبلغه الدعوة كان معذورا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء:١٥) وقال الرسول ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة : عن الصغير حتى يكبر ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق »[١] .

وكذلك يعذر من لا إرادة له في العمل كالمكره والناسي والمخطئ ، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾(النحل:١٠٦) وفي الحديث :« إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[٢]. وقال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب:٥) .

ومثل ذلك المضطر ، فإن إرادته كلا إرادة ، لوجود الضرورة الملجئة . قال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٣).

وكذلك يعذر العاجز عن العمل المكلف به ، فإنه يسقط عنه إلى بدله ، أو إلى غير بدل ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وإلا ما آتاها ، فالاستطاعة شرط في التكليف . قال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن:١٦) وقال في الحج : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران:٩٧) وقال في الجهاد : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال:٦٠) وفي الحديث : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم »[٣].

ولهذا يصلي قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فمضطجعا أو مستلقيا كيفما استطاع .

والمريض في الصيام يفطر ويقضيى ، والشيخ الكبير يفطر ويفدي .

* * *

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن علي وعمر وعائشة . وذكره في صحيح الجامع الصغير (٣٥٠٦) - (٣٥٠٨) .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢٠٥٤) وابن حبان في صحيحه (٧٢١٩) والحاكم في مستدركه (١٩٨/٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي . والبيهقي في سننه (٣٥٦/٧) كلهم عن ابن عباس ، وحسنه النووي في الأربعين ، وهو الحديث التاسع والثلاثون .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

هل يُدفع القدر ؟

يتصور بعض الناس أن القدر لا يُدفع .

فمن قدر الله عليه الفقر فهو فقير .

ومن قدر الله له الغنى فهو غني .

ومن قدر له العافية فهو معافي لا محالة .

ومن قدر عليه المرض فسيمرض ولابد .

ومن أجل هذا يقول هؤلاء : إن الدعاء لا ثمرة له ولا فائدة فيه : لأنه لا يغير من المقدور شيئا . لأن ما قُضي كائن ، وما قُدر نافذ ، بالدعاء أو بعدمه ، والدعاء لا يغير من الواقع المقدور شيئا .

ونقول لهؤلاء :

١ - ما أمر به الله من أقدار قد غيبت علمه عنا ، واختص به نفسه ، لحكمة بالغة ونحن لا نعرف أن الأمر مقدر لنا أو علينا إلا بعد وقوعه . أما قبل ذلك فكل الممكنات مستوية الوقوع وعدمه بالنسبة إلينا .

إنمـــا الغيــــب كتــــاب صــــانه ... عن عيـــون الخلـــق رب العـــالمين

ليس يبدو منـــه للنـــاس ســـوى ... صفحة الحاضر حينا بعـــد حينـــا

ومن هنا وجب علينا أن نقدم على قول الحق أو عمل الخير ، وكأنه ليس هناك قدر سابق ، أو ليس علينا أن ننظر إلى ما قدر الله ، بل إلى ما شرع الله . فهذا هو الذي في استطاعتنا ، وهو الأنفع لنا .

وهذا يوجب علينا أن نعتصم بالدعاء إلى الله ، لأنه أمر ندب إليه الشرع ، وجعله سببا من أسباب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، كما يدفع الله به الشر والشقاء في الآخرة والأولى .

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » ، ومعنى أنه يرد القدر : أنه يدفعه كما تدفع كل الأسباب مسبباتها .

وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية عن الصوفي المربي الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه قال :

« كثير من الرجال إذا وصلوا القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لي فيه روزنة (كوة) فنازعت أقدار الحق بالحق ، والرجل من يكون منازعا للقدر بالقدر لا موافقا له » .

وعقب ابن تيمية على ذلك بقوله : وهو رضي الله عنه كان يعظم الأمر والنهي ، ويوصي باتباع ذلك ، وينهي عن الاحتجاج بالقدر ، وكذلك شيخه حماد الدباسي ، وذلك لما رأوه في كثير من السالكين من الوقوف عند القدر المعارض للأمر والنهي ، والعبد مأمور بأن يجاهد في سبيل الله ، ويدفع ما قدر من المعاصي بما يقدر من الطاعة ، فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور ، لله تعالى . وهذا هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين . من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد رد الإمام ابن القيم على من سأل عن فائدة الدعاء ، وقال : إن المدعوّ به إن كان قد قدر ، لم يكن بد من وقوعه . دعا به العبد أو لم يدع . وإن لم يكن قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أم لم يسأله .

وذكر أنه يمكن يقال لأحد هؤلاء : إن كان الشبع والري قد قدر لك فلا بد من وقوعهما ، أكلت أم لم تأكل ، وإن لم يقدر لم يقعا ، أكلت أم لم تأكل.. وهكذا في كل الأمور .

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي ؟

بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

إن هذا المقدر قدر بأسبابه ، ومن أسبابه الدعاء . فلم يقدر مجردا عن سببه ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور .

وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر . . .

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب . فإذا قدر وقوع المدعو به لم يصح أن يقال : لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل والشرب ، وجميع الحركات والأعمال .

وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ في حصول المطلوب[1] .

وقال ابن القيم :

الفقيه كل الفقيه : الذي يرد القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر . بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك . فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر . والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر .

وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة . فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء . فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضا ، ولا يبطل بعضها بعضا[2] .

* * *

---

(١) الجواب الكافي ص ١٧ ، ١٨

(٢) المصدر السابق ص ٢٢

الإنسان بين الهدى والضلال

• باب الهدى مفتوح للجميع

إن الله تعالى هو الذي شاء للإنسان أن يكون مسئولا عن نفسه ، وأن يكون مصيره بيده ، وجعل فلاحه مربوطا بسعيه وكسبه ، منوطا بجهده وجهاده ، ورغبته في الترقي والتطهير ، وإيثاره للحق على الهوى ، وللرشد على الغي ، وللهدى على الضلالة .

والقرآن الكريم من أوله إلى آخره حافل بالآيات المحكمات التي تقرر هذه الحقيقة ، التي عليها يقوم بناء التكليف والخطاب ، وعلى أساسها جاء الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وعليها بني الثواب والعقاب ، والجنة والنار .

لنقرأ على سبيل المثال هذه الآيات :

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾(الإسراء:١٥)

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾
(الأنعام:١٠٤)

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء:٧)

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾
(فصلت:٤٦)

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٧-١٠)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى:١٤،١٥)

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (القيامة:١٤،١٥)

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ (النجم:٣٩،٤٠)

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾
(البقرة:٢٨٦)

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت:٦٩)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١)

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٣٥-٤١).

ولا غرو أن عجّب القرآن من الذين لا يؤمنون ولا يهتدون ، مع ما يسر لهم من سبل الهدى ، وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق .

لنقرأ مثل هذه الآيات :

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾
(الانشقاق:٢٠،٢١)

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾
(المدثر:٤٩-٥١)

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾
(النساء:٣٩)

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الحديد:٨)

ومثلها ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾
(الحديد:١٠)

وهل يسوغ في العقل أن يخاطب المجبور المسير بمثل هذا الأسلوب الذي يشعر بأن المكلفين لهم تمام الحرية في الإيمان والهدى ، وأن عليهم المسئولية في الضلال والغي ؟.

• نعمتان هما أصل كل سعادة

إن الله سبحانه قد أنعم على عباده بنعمتين عظيمتين ، هما أصل لكل سعادة ، ومصدر لكل خير .

أولاهما : أنه خلقهم في أصل النشأة على الفطرة بعوامل خارجية ، ومؤثرات غريبة عنها ، كتأثير الأبوين والبيئة ونحو ذلك .

الثانية : أنه تعالى هدى الناس هداية عامة ، لم يخص بها قوما دون قوم ، ولا فردا دون فرد ، وذلك بما أودع فيهم من عقول ، يتمكنون بها من المعرفة ، وما أنزل إليهم من كتب ، وأرسل إليهم من الرسل ، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ومن رحمة الله وفضله ، أنه لا يعذب عباده بموجب ما أودع في فطرتهم ، وما ركب في عقولهم ، حتى تبلغهم دعوة رسله ، فإذا لم تبلغهم كانوا معذورين عنده ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ (الإسراء:١٥).

• معنى : يضل من يشاء

بقيت هنا آيات يشتبه معناها على كثير من الناس ، ويتخذها الميالون إلى الجبر سندا لهم ، مثل قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ** ﴾ (فاطر:٨) ومثل قوله : ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا** ﴾ (الأنعام:١٢٥) وقوله : ﴿ **مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ (الكهف:١٧) ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ** ﴾ (الجاثية:٢٣).

فإذا كان الله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ومن أضله فلا هادي له أبدا ، فكيف السبيل إلى الهداية والطريق إليها مسدود ، إلا أن يشاء الله ، وكيف يأمن الإنسان ألا يضله الله ، ويجعل صدره ضيقا حرجا ؟

كيف يجد الإنسان سبيل الهدى إذا ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، وجعل بينه وبين الإيمان حجابا مستورا ؟

هذا ما يقوله الذين يخطفون الآيات خطفا ، دون أن يتدبروها ، ويربطوا بعضها ببعض ، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢).

إن الله تعالى يقول : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ كما قال : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران:١٢٩) وقد جاءت الآيات المحكمات تبين أن الله لا يغفر لأهل الشرك ، كما لا يعذب أهل الإيمان والشكر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ (النساء:١١٦) ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ (النساء: ١٤٧) وبعد هذه التخصيصات لم يجز تفسير الآية بإبقاء المشيئة مطلقة ، بحيث نرجو المغفرة للمشركين المصرين ، ونخاف العذاب على النبيين والصديقين .

وكذلك آيات الإضلال والختم والطبع التي وردت عامة ، فقد خصصتها آيات آخر ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٦،٢٧) فالإضلال لم يكن إلا عقابا جوزي به الفاسقون ، الناقضون للعهد ، المفسدون في الأرض ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٠) ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس:٣٣) ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام:١١٠) ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الصف:٥) ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾(الليل:٨-١٠) ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾(النساء:١٥٥) وفي الآية رد لقولهم إن قلوبهم خلقت غلفا ، لا تقبل هدى ولا حقا ، فبين أن الله لم يخلق قلبا مطبوعا على الكفر ، بل يعاقب المعاندين الكافرين بالطبع على قلوبهم . كما قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (يونس:٧٤) وقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم

﴿مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾ (المائدة:١٣) ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر:٣٥) .

فليس معنى الآيات المذكورة في الختم الطبع ، والسد والغشاوة ، والران ونحوها أن الله حال بينهم وبين الهدى ، وسد عليهم طريق الإيمان ، إذ لو صح ذلك لكان لهم الحجة على الله تعالى أن يقولوا : كيف يدعونا إلى أمر ثم يحول بيننا وبينه؟ كيف يعاقبنا عليه وقد منعنا من فعله؟ وكيف يكلفنا بأمر لا قدرة لنا عليه؟ وهل هذا إلا بمثابة من أمر خادمه أو ابنه بالدخول من باب ، ثم سده عليه محكما ، لا يستطيع الدخول منه بحال ، ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم دخوله؟ أو بمنزلة من أمره بالمشي إلى موضع ، ثم قيده بقيد لا يمكنه معه نقل قدميه ، ثم أخذ يعاقبه على عصيانه للأمر؟!

وإذا كان هذا قبيحا في حق المخلوقين الفقراء المحتاجين ، فكيف ينسب إلى رب العالمين ، مع كمال غناه وعلمه ، وعدله وإحسانه ورحمته؟.

وقد كذّب الله الذين قالوا : قلوبنا غلف ، وفي أكنة ، وأنها قد طبع عليها ، وذمهم على هذا القول وجعله من جملة جرائمهم الموبقات .

ولكن القوم لما أعرضوا عن الإيمان ، وتركوا الاهتداء بهدى الله الذي أرسل به رسله ، عاقبهم الله في قلوبهم بالختم والطبع والقسوة ونحوها ، جزاء وفاقا على كفرهم وصدهم عن سبيل الله ، وهو لون من العذاب الأدنى الذي جاء به الوعيد .

والله تعالى يعاقب على الضلال المقدور بإضلال بعده ، ويثيب على الهدى بهدى بعده ، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها ، ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد:١٧) ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة:١٠).

وبهذا يتضح لنا أن الإضلال والختم على القلوب ونحوها ، ليست أسبابا للكفر والفسوق والعصيان ، بل هي نتائج لها ، وعقوبات عليها ، وفقا لسنته تعالى في

الأسباب والمسببات ، وهذا واضح حتى في الآية التي تشتبه على الكثيرين ويعـدونها السند الأول للجبر ، وهي قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٥) فختام الآية يدل على أن سنة الله أن يجعل هذا الإضلال على الذين لا يؤمنون : كقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر:٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر:٢٨) ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (غافر:٣٤) ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(إبراهيم:٢٧) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(المائدة:٥١) ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الصف:٥).

فالذي آتاه الله البصيرة فطمسها ، ولوث قلبه بالكذب والكفر ، والإسراف والارتياب ، والظلم والفسوق ، لن يجد هداية الله ، لأنه سد على نفسه طريقها ، وأغلق دونه بابها ، بسوء عمله وسلوكه ، وللسلوك آثار حتمية في النفس ، اقتضتها سنة الله في الخلق : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح:٢٣) .

فإن قيل : فكيف جاء الكفر والذنب الأول ، الذي عوقبوا عليه بالختم والطبع ونحوها؟

قلنا : إن أول ما يقع من المكلف من الذنوب ، إنما يأتي نتيجة التخلية بينه وبين نفسه ، دون إضلال من الله تعالى في هذه الحال ، ولا تيسير للعسرى .

كل ما في الأمر أنه تركه ونفسه ، وولاه ما تولى ، كما عبر القرآن عن ذلك بأفصح عبارة فقال : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء:١١٥) [1] .

● تفسير غير مقبول للآية الكريمة

وقد ذهب بعض المعاصرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر:٨) إلى معنى يصرف الآية عن المتبادر منها لمن يقرأها

(١) ملخص من كتاب (شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل) لابن القيم .

فالمعنى المتبادر : أن ضمير الغائب المستتر في فعل (يشاء) يرجع إلى الله تعالى ، أي أن الله تعالى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته ، فكل الأمور راجعة إلى مشيئته المطلقة ، التي لا يحدها شيء سواه ، فهو يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

ولكن هذا المفسر العصري ، زعم أن الضمير في (يشاء) يرجع إلى اسم الموصول (من) أي أن الله يضل من يشاء الضلالة لنفسه ، ويهدي من يشاء الهداية لها . فالذي يشاء هنا هو الإنسان المطلق ، وليس الله تعالى . وبهذا تؤكد الآية مسئولية الإنسان عن نفسه ، وأن مصيره بيديه .

ولكن هذا التفسير غير مرضي ولا مقبول ، لعدة أوجه :

الأول : أنه غير المتبادر لتالي القرآن .

الثاني : أنه مخالف لأمثاله في القرآن ، في نحو قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ (الفتح:١٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(النساء:٤٨) ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾(العنكبوت:٢١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران:٣٧).

فهذه الآيات وأمثالها يعود الضمير فيها إلى الله تعالى ، فإن الله لا يغفر لمن يشاء من عباده المغفرة ، بل لما يشاؤه هو ، وكذلك يعذب من يشاء عذابه هو ، ولا أظن أحدا يشاء العذاب لنفسه . ومثل ذلك الرزق ، كما هو واضح من السياق .

الثالث : ما جاء من القرآن في ذلك بصيغة الخطاب لله عز وجل ، كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام يناجي ربه : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ (الأعراف:١٥٥).

● أثر الأعمال في النفس

وهنا حقيقة لابد أن نقررها بوضوح .

وهي : أن للأعمال آثارها في النفس حسب سنة الله ، صالحة كانت أم سيئة ، كما شرح ذلك ابن تيمية وابن القيم ، وقبلهما الغزالي ، وغيرهم .

فالصلاة إذا حافظ عليها الإنسان ، ووفاها حقها من الخشوع والمراقبة والإخلاص ، أثمرت لصاحبها نورا في القلب ، وانشراحا في الصدر ، وطمأنينة في النفس ، ونشاطا في البدن ، وقوة في العزيمة ، وبهاء في الوجه ، وانتهاء عن الفحشاء والمنكر ، إلى غير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه .

وهذه الآثار هي أسباب مفضية إلى آثار أخرى من جنسها أو من غير جنسها ، أرفع منها وأعظم ، وهذه الآثار كلها نوع من الثواب العاجل على العمل الصالح .

والعمل السيىء أيضا ، له أثره ونتائجه المترتبة عليه .

فتعمد الكذب يثمر لصاحبه ضيقا في الصدر ، وظلمة في القلب ، ونقصا في اليقين ، واسودادا في الوجه ، وبغضا في قلوب الخلق ، واجتراء على ذنب آخر من جنسه أو من غير جنسه ، وهكذا .

ومثل ذلك شرب الخمر أو الزنى أو أكل الربا ، تجد لكل هذه الأعمال آثارها الحتمية في النفس والسلوك في العقيدة والخلق ، وفي العقل والقلب ، وفي الوجدان والإرادة .

وهذا شيء نلمسه ونشاهده في الناس وفي أنفسنا ، ولهذا قيل : (إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها) .

فهذه الآثار التي تورثها الأعمال هي جزء من الثواب والعقاب وإفضاء العمل إليها واقتضاؤه إياها ، كاقتضاء جميع الأسباب لمسبباتها . فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات ، ومانحها قواها وتأثيراتها ، ومجريها وفق مشيئته وحكمته .

والإنسان إذا أكل أو شرب حصل له الشبع والري ، نتيجة لازمة لتناول الطعام والشراب ؛ فقد ربط الله سبحانه الشبع والري بالأكل والشرب ربطا محكما ، ولو شاء ألا يشبعه ويرويه مع وجود الأكل والشرب فعل . إما بألا يجعل في الطعام خاصة الإشباع ، أو بَأن يجعل في المحل قوة مانعة من القبول ، أو بما يشاء سبحانه وتعالى . ولو شاء الله أن يشبعه ويرويه بلا زاد ولا ماء ولا أكل ولا شرب ، أو بأكل شيء غير معتاد ، ما حال دون ذلك حائل .

وبيان ذلك : أن نفس الأكل والشرب باختيار الإنسان ومشيئته ، التي هي من فعل الله سبحانه وتعالى أيضا ، وحصول الشبع عقب الأكل ليس للمرء فيه صنع ألبته ، حتى لو أراد دفع الشبع عنه بعد تعاطي الأسباب الموجبة له لم يقدر . وكذلك نفس العمل ، هو بإرادته واختياره ، فلو شاء أن يدفع أثر ذلك العمل وثوابه بعد وجود موجبه لم يقدر .

ومن هنا نعلم : أن ما يصاب به بعض الناس من ختم على قلبه ، أو عمى عن رؤية الحق ، أو صمم عن سماع ندائه ، فهو أثر أعمالهم ، ومقتضى سلوكهم الاختياري . سنة الله في خلقه .

يقول العلامة ابن القيم في ذلك ما خلاصته :

إذا أردت فهم هذا على الحقيقة ، فتأمل حال من عرضت له صورة بارعة الجمال ، فدعاه حسنها إلى محبتها ، فنهاه عقله ، وذكره ما في ذلك من التلف والعطب وأراه مصارع العشاق عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، فعاد يعاود النظر مرة ومرة ، ويحث نفسه على التعلق ، ويحرضها على أسباب المحبة ، ويدني الوقود من النار ، حتى إذا اشتعلت ، وشب ضرامها ، ورمت بشررها ، وقد أحاطت به ، طلب الخلاص فقال له القلب : هيهات لات حين مناص! وأنشده :

تولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

فكان الترك أولا مقدورا له ، فلما تمكن الداعي ، واستحكمت الإرادة ، قال المحب لعاذله :

يا عاذلي والأمر في يده ... هلا عذلت وفي يدى الأمر؟

فكان أول الأمر إرادة واختيارا ، ووسطه اضطرارا ، وآخره عقوبة وبلاء ، انتهى .

* * *

سر القدر

بقي في القدر«منطقة حرام» يجدر بالعقول الحصيفة ألا تقتحمها ، ولا تحوم حول حماها ، وهي التي تتعلق بحكمة الله فيما خصص واختار من أشياء ، وما قضى من ألم وبلاء . لماذا أعطى هذا ، ومنع ذلك؟ ولماذا اختص قوما بلطفه وهدايته ، ولو شاء لهدى الناس أجمعين؟ لماذا اقتضت حكمته أن يعصى ولو شاء ما عُصي؟ لماذا خلق هذا الإنسان الظلوم الجهول الكفور؟ ولماذا لم يخلقه على طبيعة خيرة كطبيعة الملائكة؟

هذه الأسئلة ونظائرها لاجواب لها يشفي إلا التسليم لمحض المشيئة الإلهية الطليقة من كل قيد ، إلا ما تقضيه الحكمة الإلهية التي نعلم من آثارها القليل ، ونجهل الكثير ، وجهلنا بها لا ينفي وجودها .

ويكفي العاقل ، كما قال الإمام ابن تيمية : «أن يعلم أن الله عز وجل عليم حكيم ، بهرت الألباب حكمته ، ووسعت كل شيء رحمته ، وأحاط بكل شيء علمه ، وأحصاه لوحه وقلمه ، وأن لله تعالى في قدره سرا مصونا ، وعلما مخزونا ، احترز به دون جميع خلقه ، واستأثر به على جميع بريته ، وإنما يصل أهل العلم به ، وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك ، وقد لا يؤذن لهم في ذكرها . وربما كلموا الناس في ذلك على قدر عقولهم ، وقد سأل موسى وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر ، وأنه لو شاء أن يطاع لأطيع ، وأنه مع ذلك يعصى ، فأخبرهم سبحانه أن هذا سره . وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق» .

عن عمرن بن ميمون عن ابن عباس قال : لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت وأنت تحب أن تطاع ، وأنت في ذلك تعصى ، فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون ، فانتهى موسى .

• سؤال عن وقوع الشرور والقبائح في العالم

وينجم هنا سؤال آخر :

إذا كان كل ما يحدث في الكون ـ ومنه الشرور والمعاصي والقبائح والفساد ـ واقعا بإرادة الله ـ الإرادة الكونية ـ ولو شاء الله ما وقع ، فكيف يتفق هذا مع حكمته تعالى ورحمته وبره وإحسانه؟ لماذا لم يمنع هذه المعاصي والقبائح والمفاسد؟ لماذا أرادها وهو ذو الحكمة والرحمة؟

هذا السؤال سؤال قديم جديد أيضا ، ومضمونه التساؤل عن سر وجود الشر في العالم . وكيف يريد الله الشر ، وهو مصدر كل خير ونعمة؟

الجواب :

أن هناك أشياء تراد لنفسها بالقصد الأول : وأخرى تراد ولكن لغيرها ، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو غير مقصود له من حيث نفسه وذاته . مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده ، فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته من غير تناف : لاختلاف متعلقهما ، كالدواء المتناهي في الكراهية ، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وقطع المسافة الشاقة جدا إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه ، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خيفت عليه عاقبته ، وطويت عنه مغبته ، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه يكره الشيء ويبغضه في ذاته ، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره ، لكونه سببا لأمر هو أحب إليه من فوته .

حقيقة الأمر أن الله لم يخلق شرا محضا ولا شرا غالبا ، بل لم يخلق شرا أبدا ، ذلك أنه سبحانه لم يخلق شيئا إلا لحكمة ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها ، وجهل بعض الخلق بها لا ينفي وجودها ، وحسب أولي الألباب من ذوي الفكر والذكر أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً سُبْحَـٰنَكَ ﴾ (آل عمران:١٩١).

كل ما خلقه الله ـ إذن ـ من الأفلاك والجمادات والنباتات والحيوانات والجن والإنس والملائكة فهو مخلوق لحكمة ، ومخلوق لله على أحسن وجه يليق بحكمة

الخالق الحكيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة:٧) ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ ﴾ (النمل:٨٨) ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾ (الملك:٣) ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون:١٤).

فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خلق لأجلها خير وحكمة ، وإن كان فيه شر من جهة أخرى ، فذلك أمر عارض جزئي ، ليس شرا محضا ، بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح ، هو خير من الفاعل الحكيم وإن كان شرا لمن قام به .

وظن الظان أن الحكم المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه ، إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور ، وارتباط بعضها ببعض ، فإن الخالق إذا خلق الشيء فلابد من خلق لوازمه ، فإن وجود الملزوم بدون اللازم ممتنع ، ولابد من ترك أضداده التي تنافيه ، فإن اجتماع الضدين المتنافيين في وقت واحد ممتنع .

وهو سبحانه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يستثني من هذا العموم شيء ، لكن مسمى «الشيء» ما تصور وجوده ، فأما الممتنع لذاته فليس شيئا باتفاق العقلاء»[1].

مثال ذلك : خلق الإنسان ، هذا النوع المكلف المختار من الخليقة ، إن إبرازه من العدم إلى الوجود خير لا شر فيه ، ومنحه العقل المفكر خير لا شر فيه ، واستخلافه في الأرض ليعمرها خير لا شر فيه ، وتكليف طاعة الله فيها خير لا شر فيه .

وإنما جاء الشر من استعماله ما أوتي من العقل والإرادة والقدرة في غير ما خلقت له . وفي غير ما طلب منه وأُمر به . وجاء كذلك من اختلاف العقول وتنازع الإرادات بعضها وبعض ، هذا الشر العارض جاء من الخير الثابت ، الذي هو خلق الإنسان ذا عقل وإرادة وقوة وذوافع فطرية ، فهو لازم من لوازم ذلك الخير .

ومثل ذلك يقال في إنزال الأمطار مثلا فلا شك أن فيها الخير والرحمة والمنفعة مما لا يجادل فيه أحد ، ولكنها قد تسبب ضررا لبعض الأحياء ، ولكنه لازم من لوازم نزول المطر . وهو على كل حال شر جزئي قاصر ، إذا قيس بالخير العام الذي ينال مجموع الخلق بسببها .

على أن حكمة الله التي نوقن بها في كل شيء ، ولا تتيسر معرفتها في كل وقت ، ولكل الناس ، وفي كل أمر .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية - ج ٨ ص ٥١٢، ٥١٣ .

فكم لله من سر خفي يدق خفاه عن فهم الذكي .

ومن الحكم ما تعجز عقولنا عن إدراكه واستيعابه ، فخبأه الله عنا ، رفقا بنا لا ضنا علينا ، فحسبنا أن نؤمن بالحكمة فيما خفي علينا سره ، إيمانا إجماليا عاما ، وأن نقول ما قال أولو الألباب :﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ (آل عمران:١٩١).

ولهذا لما قال الله سبحانه وتعالى للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) سألوه عن الحكمة في استخلاف هذا المخلوق الذي ليس مفطورا على الطاعة مثلهم ، والذي عرفوا من طبيعة خلقه أنه يفسد ويقتل ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة:٣٠) فكان الجواب الإلهي : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) فتكفيهم المعرفة المجملة والإيمان العام في هذا المقام .

فأعتقد أن هذه المنطقة من مناطق القدر ، هي التي أمرنا أن نمسك عنها ، ولا نخوض فيها ، فإنها أكبر من طاقتنا القاصرة ، وفوق عقولنا المحدودة وفيها جاء الحديث : « إذا ذكر القدر فأمسكوا »[1] .

ولا أظن القدر المراد في هذا الحديث ينافي بحث مسئولية الإنسان عن عمله وهل هو مسير في حياته أو مخير؟ فإن تحديد هذه النقطة أمر خطير يقوم عليه بنيان التكاليف كلها . ومداخل الوهم هنا كثيرة ، والمزالق جمة ، فلابد من مطاردة الأوهام ، وتصحيح الأفهام ، وبخاصة أن الأمر يتعلق بفهم مجموعة كبيرة من آيات الكتاب العزيز ، وأخرى من أحاديث الرسول الكريم ، ضل في فهمها المفرِطون والمفرِّطون ، وضربوا بعضها ببعض ، فشرّق ببعضها قوم ، وغرّب ببعضها آخرون .

والفرار من قضية القدر كلها ـ ومنها تحديد مسئولية المكلفين ـ لا يحل العقدة ، ولا يعالج المشكلة ما دامت هذه الأفهام المغلوطة ، والأوهام السائدة قائمة في الرؤوس ، مسيطرة على النفوس .

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود وابن عدي عنه وعن ثوبان ، وابن عدي عن عمر ، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٥٩) .

• الممنوع في قضية القدر

وإنما الممنوع في مسألة القدر أمران :

الأول : هو الخوض فيما تبلغ عقولنا معرفة تفاصيله ، ولا نستطيع في هذه الحياة كشف أسراره ، فهو داخل في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، وموقف المؤمن هنا موقف الراسخين من العلماء الذين أثنى الله عليهم بقوله : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران:٧).

وهذا من إضافتهم ومعرفتهم قدر أنفسهم ، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥)

الثاني : هو تحويل قضية القدر إلى قضية جدلية يتمارى فيها المتمارون ، ويتنازع المتنازعون ، وينقسم الناس فيها إلى فرق ، كل منهم يتعصب لما يراه ، ويجر إليه آيات من كتاب الله تعضده طوعا أو كرها ، مهملا النظر في الآيات الأخرى ، وبهذا يضربون القرآن بعضه ببعض .

وفي هذا ورد الحديث عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر . فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، فقال لهم : (مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم) [1] .

وروى أحمد هذا الحديث رواية أخرى مفصلة عن عبد الله بن عمرو وقال : « لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لى به حمر النعم . (وكانت أفضل الإبل عند العرب) أقبلت أنا وأخي ، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حَجرة (أي ناحية منفردين) ، إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها ، حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا ، قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ، ويقول : « مهلا يا قوم ، بهذا أُهلِكَتْ الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب

---

(١) رواه أحمد في مسند عبد الله بن عمرو برقم (٦٦٦٨) وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح، ورواه ابن ماجه (٨٥) ونقل محققه عن زوائد البوصيري قال: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات .

بعضه بعضا . بل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردّوه إلى عالمه»[1].

هذان هما الأمران الممنوعان في قضية القدر ، ما يتصل بتقدير المعاصي والآلام والشرور الجزئية في العالم ، والمراء في القدر إلى حد التنازع والافتراق وضرب الكتاب بعضه ببعض .

أما ما عدا ذلك فقد تحدث النبي ﷺ عن أمور في القدر ، وسئل عن أشياء فيه ، فبينها وصحح مفاهيم الناس فيها ، وقد بعث ليبين للناس ما نزل إليهم .

* * *

(١) رواه أحمد برقم (٦٧٠٣) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. وروى البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) نحوه، وإسناده صحيح، وروى مسلم في صحيحه (٢:٣٠٤) نحو معناه مختصرا .

ثمار الإيمان بالقدر

للإيمان بالقدر ـ كما جاء في القرآن والسنة ـ وكما فهمه سلف الأمة ـ ثمار مباركة ، وآثار طيبة ، في عقلية المسلم ونفسيته ، في وجدانه وإرادته ، وعلاقته بنفسه وبربه ، وبمن حوله ، وما حوله ، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة ، يشهد بها كل ذي لب ، ويلمسها كل ذي بصر ، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام ، وفي السلم والحرب ، وفي اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، والنعماء والبأساء .

● من هذه الثمار والآثار

١- القوة في مواطن البأس والخطر .

٢- الثبات في مواجهة الطغيان .

٣- الصبر عند صدمة المصائب .

٤- الرضا والقناعة بما قسم الله .

٥- العزة في طلب الحوائج .

٦- السكينة وراحة النفس .

٧- الاتجاه إلى العمل والبناء .

وسنتحدث عن كل واحدة من هذه الثمرات بما يجليها .

١- القوة في مواطن البأس والخطر :

أما القوة في مواطن البأس والخطر ، وعند ملاقاة الأعداء في الحروب ، فهو أمر معروف ، حدثنا عنه التاريخ ، وأنبأنا به الواقع .

فإيمان المسلم بأن ما قدره الله له أو عليه نافذ لا محالة ، وأنه لن يموت قبل أجله المحدد ، وأن أحدا لا يستطيع أن يزيد في عمره ، أو ينقص منه ، كما قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٤).

والساعة لا يراد بها الساعة الفلكية التي نتعامل بها اليوم ، بل الساعة في اللغة ، هي اللحظة الزمنية ، فإذا حضر الأجل لا يستطيع صاحبه أن يتأخر عنه لحظة كما لا يتقدم أيضا .

وهذا ما جعل المسلمين في الحروب التي تكتب عليهم ، منذ غزوة بدر الكبرى إلى حرب الشيشان اليوم ، لا يبالون : أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، موقنين بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٥٤).

ولهذا كان علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه يخوض الحرب ، وهو رابط الجأش ، مطمئن النفس ، راسخ القدم ، وهو ينشد :

أيّ يـــوميّ المـــوت أفـــر؟ يـــوم لا يقـــدر أم يـــوم قـــدر
يـــوم لا يقـــدر لا أحـــذره ومن المقدور لا ينجـــي الحـــذر

يعني أن الموت إذا كان مقدرا عليه فهو واقع لا محالة ، ولا يغني حذر من قدر ، فلماذا يحذر ويخاف؟ وإذا لم يكن الموت مقدراً عليه في المعركة ، فلا معنى للحذر والخوف منه ، لأنه مستحيل وقوعه . فعلى أي الاحتمالين لا معنى ولا مجال للخوف من الموت لديه .

قال السيد جمال الدين الأفغاني في مقال بمجلة (العروة الوثقى) الشهيرة :

«الاعتقاد بالقضاء والقدر - إذا تجرد عن شناعة الجبر - يتبعه الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ، يبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها الأسود ، وتنشق منها مرائر الأهوال ، ويحليها بحلل الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة . . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله ، يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟

اندفع المسلمون في أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول ، وحيروا الألباب ، بما دوخوا الأمم ، وقهروا الدول ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينيه - الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا - إلى جدار الصين ، مع قلة عُدتهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوعة ،

أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة ، في مدة لا تتجاوز ثمانير
ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات »[1] .

٢- الثبات في مواجهة الطغيان :

ومن ثمار الإيمان بالقدر : أنه يهب صاحبه ثباتا ورسوخا في مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان ، وإنكار المنكر ، لا يهاب فرعونا متألها ، ولا طاغوتا متجبرا ، شعاره قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة:٥١) .

وكما روي في بعض الأحاديث : « ولا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه ويذكّر بعظيم ، فإن ذلك لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق »[2] .

ذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفيسين عندهم ، وهما : العمر والرزق والعمر محتوم ، والرزق مقسوم .

وكما لا يستطيع أحد أن ينتقص من عمرك ساعة ، لا يستطيع أن ينتقض من رزقك لقمة ، وعبر بعضهم عن ذلك فقال :

لا تعجلن فليس الـرزق بالعجـل ... الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

من يتـق الله يرزقـه ويعـل بـه ... من غير محتسَب منـه ولا وجـل

ولهذا وقف المؤمنون في وجه الطغاة والجبارين ، ولم يعبأوا بجبروتهم ، ولم يهنوا أمام قوتهم وطغيانهم .

هدد الحجاج الإمام الفقيه سعيد بن جبير بالقتل ، فقال له : لو علمت أن الموت والحياة بيدك ، ما عبدت إلها غيرك !

وقال لامرأة من الخوارج : لأحصدنكم حصدا ، فقالت له : أنت تحصد ، والله يزرع ، فانظر : أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق؟

وفي عصرنا رأينا العلماء ، والدعاة الشامخين يواجهون المستعمرين ، وأذناب المستعمرين من الملوك والرؤساء ، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله كما رأينا مولانا أبا الكلام آزاد ، في مواجهة الإنجليز حينما سجنوه وحاكموه .

---

(١) انظر مجلة (العروة الوثقى) نشر دار العرب للبستاني في بيروت ص ٩٣ .

(٢) قال البيهقي في (مجمع الزوائد ٧/٢٦٥) : رواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري ، ورجاله رجال الصحيح ، غير شيخ الطبراني .

وكما رأينا رباني الأتراك الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي حين حاكمه جماعة أتاتورك .

كما رأينا الإمام أبا الأعلى المودودي ، حين حاكموه في باكستان من أجل القاديانيين وحكموا عليه بالإعدام . ثم ألغي الحكم .

وكما رأينا الداعية الشهيد سيد قطب ، حين حاكموه من أجل كتابه(معالم في الطريق) وحكموا عليه بالإعدام ، ونفذوه فيه ، وقبله الفقيه الشهيد عبد القادر عودة ، صاحب كتاب (التشريع الجنائي الإسلامي) .

إن المؤمن لا يخاف على عمره ، لأنه يعلم أنه أيام معدودة ، وأنفاس محدودة ، في صحف مكتوبة : كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ** ﴾ (فاطر:١١).

٣- الصبر عند نزول المصائب :

ومن ثمرات الإيمان بالقدر : الصبر عند نزول المصائب ، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع ، والفزع ، ولا يستبد به السخط والهلع ، بل يستقبل مصائب الدهر بثبات كثبات الجبال ، قد استقر في أعماقه قول الله تعالى : ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ** ﴾(الحديد:٢٢،٢٣).

فإيمان المسلم بقدر الله تعالى يمنحه الثبات عند صدمة المصيبة ، لأنه يعلم أنها مقدرة مكتوبة من قبل أن تخلق ، ويخلق ، ومن هنا لا يستخفه الأسى والحزن على ما فات ، والفرح بما هو آت ، بل هو ثابت متوازن .

ولهذا مدح رسول الله المؤمن فقال : (عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له) [(١)] .

والمراد بالمؤمن هنا (المؤمن القوي) وهو خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وإن كان في كل خير ، والمؤمن القوي هو الذي إذا حل به ما يكره من شدائد الدنيا وكرباتها ، قال في يقين وثقة : « قدر الله وما شاء فعل» كما علمه رسوله ﷺ .

---

(١) رواه مسلم عن صهيب في الزهد والرقاق (٢٩٩٩) .

عزّى علي رضي الله عنه رجلا مات ابنه وكان شديد الحزن عليه ، فقال له : يا أبا فلان ، إنك إن صبرت نفذت فيك المقادير ولك الأجر، وإن جزعت ، نفذت فيك المقادير ، وعليك الوزر .

فالمقادير نافذة في كلا الحالين ، ولكن العاقل ، هو الذي يختار أن تنفذ المقادير فيه ، وهو مأجور لا مأزور ، ليبشر مع الصابرين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٦،١٥٧).

٤- الرضا والقناعة بما قسم الله :

ومن آثار الإيمان بالقدر : رضا المؤمن بما قسم الله ، وقناعته بما رزق الله ، وهذا يثمر ثمرات طيبة في نفسية المؤمن وحياته .

أولها : غنى القلب ، فمن الناس من لو أوتي واديا من ذهب ، لابتغى ثانيا ، ولو أوتي ثانيا لتمنى ثالثا ، ومثله كجهنم يقال لها : هل امتلأت؟ وتقول : هل من مزيد؟! والغنى الحقيقي ليس إلا غنى النفس ، الذي قال عنه الرسول الكريم : «ليس الغنى عن كثرة الغرض ، إنما الغنى غنى النفس» (١) .

وقال : «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس» (٢) .

ويقول الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني :

إن الغـــني هـــو الغـــني بنفســـه ... ولوأنه عـــاري المناكـــب حـــاف

ما كل ما فوق البســيطة كافيــا ... وإذا قنعت فبعض شــيء كــاف

ولا يدري هذا الغنى النفسي إلا من رضي بما قسمه الله له ، وقنع به .

وثانيتها : الإجمال في الطلب : فهو يسعى إلى رزقه ، ويكدح في حياته ، ولكن بإجمال واعتدال ، وليس كأولئك الذين يلهثون أثناء النهار والليل ، مكدودي الأجسام ، مشتتي القلوب ، مهمومي النفوس ، لا يشعرون بهدوء بال ، ولا براحة نفس ، ولا باطمئنان فكر ، فإن حصلوا على المزيد ازدادوا لهثا وهما ، وإن أخفقوا امتلئوا نكدا وغما .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة ، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٦٢٤).

(٢) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١٠٠) .

وفي الحديث : «إن روح القدس نفث في روعي : أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» [1]

وثالثتها : ألا يتطلع إلى ما ليس في وسعه ، وليس من شأنه ، ويرضى بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه ، فلا يعيش متمنيا ما لا يتيسر له ، متطلعا إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له ، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوة الشباب ، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد ، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف ، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم ، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن لهن ما للرجال ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ (النساء:٣٢) .

في حال العسر ، وضيق الرزق ، التي تحل بالإفراد ، ولا تخلو منها حياة الناس ، وفي الأزمات الطارئة التي تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو كارثة أو نحوها .

وفي البلاد والدول التي تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها ، ولا يهتدى كثير منهم سبيلا لتنمية رزقه ، أو للهجرة من بلده ـ تكون القناعة بما رزق الله هي الدواء الناجع والبلسم الشافي ، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحا ولا علوّ همّه ، إنه طمع في غير مطمع ، وتمن لما لا يكون وحرص لا ثمرة له إلا الهم والحزن اللذان يضيقان القلب .

● الرضا مصدر قوة لصاحبه

والرضا بما قسم الله ، والقناعة بما رزق الله وإن قل ، مصدر من مصادر القوة للمؤمن الراضي القانع . إنه ينظر إلى قصور الأمراء ، وخزائن الملوك ، ورياش المترفين ، كما ينظر راكب الطائرة المحلقة في أعالي الفضاء إلى القرى والمدن والناس ، إنه يرى القصور الشاهقة كالعلب الصغيرة ، ويرى البشر كالنمل في جحوره . وهذا يقوي صاحب الرسالة في مواجهة الباطل ، ويجعله كالطود الأشم ، لا تؤثر فيه العواصف والهوج . إنه يتغنى بما تغنى به الإمام الشافعى رضي الله عنه حين قال :

---

(١) رواه أبو نعيم في (الحلية) عن أبي أمامة الباهلي ، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٢٠٥٨).

أنا إن عشت لست أعدم قوتا — وإذا مت لست أعدم قبرا

همتي همة الملوك، ونفسي — نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا ما قنعت بالقوت عمري — فلماذا أخاف زيدا وعمرا؟[1]

٥- العزة في طلب الحوائج

ومن ثمار الإيمان بالقدر : أن يطلب المؤمن حاجته عند من هي عنده بعزة نفس ، لا يطاطأ رأسه ، ولا يذل نفسه ، ولا يدني ظهره لمخلوق ، كما في الأثر : اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ، فإن ما قدر كائن .

إن الله تعالى كتب العزة للمؤمن ، فلا ينبغي له أن يفرط فيها ، قال عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون:٨).

فلا يحل لمؤمن أن يذل نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة له عنده ، كما يقول المثل المرفوض شرعا : إن كان لك عند الكلب حاجة قل له : يا سيدي !

فقد علم النبي ﷺ ابن عمه ـ عبد الله بن عباس وكان غلاما ـ كلمات على النقيض من هذا المثل وما شابهه : قال : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2]

٦- السكينة وراحة النفس :

ومن أعظم ثمار الإيمان بالقدر : شعور المؤمن به براحة النفس ، وسكينة القلب ، فقد علم علم اليقين : أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما كتبه الله له من عافية لابد أن يدركه ، وما قدر له من بلاء لن يفر منه فلا تعبث به رياح الشك ، ولا عواصف القلق المرضي الذي أصبح آفة الحضارة الغربية المادية الحديثة ، وأمسوا يقولون عنه : مرض العصر .

---

(١) انظر كتابنا (الإيمان والحياة) فصل (الرضا) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح ، ورواه أحمد (٢٩٣/١) وأبو يعلى (٢٥٥٦) . وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النووية والخمسين الرجبية .

لقد نجا المؤمن بالقدر من هذا المرض ، وعاش معافى النفس ، مرتاح البال ، فإن الله عز وجل بقسطه وحكمته ، جعل الفرج والرَّوح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في السخط والشك .

● المؤمن لا يعيش بين « لو » و « ليت »

وإن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي ، وسخطه على الحاضر ، وخوفه من المستقبل .

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر ، فيظل شهورا وأعواما يجتر آلامها ، ويستعيد ذكرياتها القاتمة ، متحسرا تارة ، متمنيا أخرى ، شعاره : ليتني فعلت ، وليتني تركت ، لو أني فعلت كذا لكان كذا ، وقديما قال الشاعر :

ليت شعرى وأين مني « ليت »؟   إن « ليتا » وإن « لوّا » . . غناء !

ولذا ينصح الأطباء النفسانيون ، والمرشدون الاجتماعيون ، ورجال التربية ، ورجال العمل ، أن ينسى الإنسان آلام أمسه ، ويعيش في واقع يومه ، فإن الماضي بعد أن ولَّى لا يعود .

ما مضى فات . والمؤمل غيب   ولك الساعة التي أنت فيها

وقد صور هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويرا بديعا لطلبته حين سألهم : كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرفع كثير من الطلبة أصابعهم ، فعاد يسألهم : وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه ، وعندئذ قال المحاضر : بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب ، فهى منشورة فعلا .

وكذلك الحال مع الماضي : فعندما ينتابكم القلق لأمور حدثت في الماضي ، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة ! !

وقد نقل هذا التصوير (دليل كارينجي) في كتابه الشهير« دع القلق وابدأ الحياة» ، كما نقل قول بعضهم : لقد وجدت أن القلق على الماضي لا يجدي شيئا تماما ، كما لا يجديك أن تطحن الطحين ، ولا أن تنشر النشارة ، وكل ما يجديك إياه القلق هو : أن يرسم التجاعيد على وجهك ، أو يصيبك بقرحة في المعدة [١] .

---

(١) دع القلق، ص١٧٣ .

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين ، فيجعلهم يطحنون المطحون ، وينشرون المنشور ، ويبكون على أمس الذاهب ، ويعضون على أيديهم أسفا على ما فات ، ويقلبون أكفهم حسرة على ما مضى .

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة ، والأفكار الداجية هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه ، وآمن بقضائه وقدره ، فلا يسلم نفسه فريسه للماضي وأحداثه ، بل يعتقد أنه أمر قضاه الله كان لابد أن ينفذ ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم ، ثم يقول ما قال الشاعر :

سبقت مقادير الإله وحكمه فأرح فؤادك من «لعل» ومن «لو»

وقول الآخر :

وليس براجع ما فات مني بـ (لهف) ولا بـ (ليت) ولا (لواني)!

إنه لا يقول : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن يقول : قدر الله وما شاء فعل ، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان [1] كما علمه الرسول ﷺ .

إنه يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة ، فلمَ السخط؟ ولم الضيق والتبرم؟ والله تعالى يقول : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد:٢٢،٢٣).

وفي غزوة أحد التي قتل فيها سبعون من خيار المسلمين ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب ، وضعاف الإيمان ، عاشوا بين «لو» المتندمة و« ليت» المتحسرة ، فيقول : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٥٤).

---

(١) رواه مسلم وسيأتي بتمامه .

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران:١٦٨).

المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين ، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين نهى القرآن عن التشبه بهم في تحسراتهم الأسيفة ، وتمنياتهم الحزينة.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (آل عمران:١٥٦-١٥٨).

إن شعار المؤمن دائما : «قدر الله وما شاء فعل» ، «الحمد لله على كل حال» وبهذا لا يأسى على ما فات ، ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات ، وحسبه أن يتلو قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن:١١) وهذا يسبغ عليه أيضا نعمة الرضا وسكينة النفس التي امتن الله بها على المؤمنين[١] في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح:٤).

٧- الاتجاه إلى العمل والبناء :

وبعد هذه الثمرات الطيبة التي يجتنبها المسلم في نفسه وحياته من خلال الإيمان بقدر الله تعالى ، وبعد شعوره براحة النفس ، وسكينة الفؤاد ، وسلامته من التحسر على الماضي ، والجزع من الحاضر ، والقلق من المستقبل ، لا يجد المؤمن سبيلا إلا الاتجاه إلى الإيجابية ، والبناء ، والعمل المثمر ، في تزكية النفس ، وعمارة الأرض ، وإصلاح المجتمع ، وهداية العالم .

وهذا شأن (المؤمن القوي) الذي همه امتثال المأمور ، واجتناب المحظور والرضا بالمقدور ، وهو الذي جاء فيه الحديث الصحيح المعروف : «المؤمن القوي خير

---

(١) انظر كتابنا: الإيمان والحياة ، فصل (سكينة النفس) .

وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، ولا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل؟فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[1]

أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه ، سواء في دينه أم في دنياه ، والاستعانة بالله على ذلك ، فهو الذي يهيئ له الأسباب ، ويزيل من طريقه المواقع ، كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(الفاتحة:٥) وقال الشاعر الصالح :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده !

ومن العجز المذموم هنا : إلقاء الأحمال على القدر والاحتجاج به في الإعفاء من المسئولية ، وقديما قيل : من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير .

وحديثا قال الشاعر الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال : المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله تعالى وقدره ، أما المسلم القوي فيعتقد أنه قدر الله الذي لا يغلب ، وقضاؤه الذي لا يرد ! .

وقد روي أن بعض الصحابة ـ في زمن الفتوح الإسلامية ـ سأله أحد قواد الفرس : من أنتم؟ وما حقيقتكم؟ فقال له : نحن قدر الله ، ابتلاكم الله بنا ، وابتلانا بكم ، فلو كنتم في سحابة في السماء ، لصعدنا إليكم ، أو لهبطتم إلينا!

وقد روي في سنن أبي داود عن عوف بن مالك أنه حدثهم أن النبي ﷺ ، قضى بين رجلين ، فقال المقضي عليه لما أدبر حسبي الله ، ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ : «إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإن غلبك أمر ، فقل حسبي الله ونعم الوكيل»[2].

كره النبي عليه الصلاة والسلام من الرجل المغلوب أن يستسلم ويعجز ، وله حيلة في المغالبة والمدافعة ، فإذا أتاه ما لا طاقة له بدفعه ، وما هو فوق قدرته ، ولا حيلة له فيه ، فهنا يكون التسليم ، ويحسن أن يقول : «حسبي الله ونعم الوكيل» .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب القدر برقم (٢٦٦٤) .

(٢) رواه أبو داود في الأقضية عن عوف بن مالك (٣٦٢٧) وقال المنذري: أخرجه النسائي أيضا .

اعتبر الرسول الكريم استسلام الرجل من العجز الذي يلوم الله عليه ، وأمره بالكيس وهو العقل والفطنة وحسن التصرف .

كما أوصى هذا الحديث المؤمن القوي إذا أصابه شيء من شدائد الدنيا وابتلاءاتها ـ وما أكثرها ـ ألا يسلم نفسه للتحسر والأسى على ما فاته ، فيصبح ويمسي ، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف ، ويقول : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، على سبيل التحسر والتمني . ويجتر الذكريات الحزينة ، بل أمره أن يرد الأمر هنا إلى قدر الله ، ويسلم لأمره وقضائه قائلا : « قدر الله وما شاء فعل » معتبرا أن الخير فيما اختاره له ، ثم هو لا يقدر على غير ذلك ، فما فات مات ، والماضي لا يعود ، وقد قال أحد الحكماء : الأمور أمران ، أمر لك فيه حيلة ، فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة لك فيه ، فلا تجزع منه .

فليكن إيجابيا ، وليتجه إلى المستقبل ليعمل ويبني وينتج ، لا إلى (اللَّولَوَة) التي يقول فيها : (لو أني فعلت ، ولو أني تركت)! فإن (لو) هذه (لو) المتمنية والمتحسرة تفتح عمل الشيطان . و عمله ليس وراءه إلا الضياع والخسران .

* * *

الفهرس